(١) أهميةُ علم التعبير وعناية العلماء به

لا يستريب المتأمّل في نصوص الوحيين الشريفين، أنّ لِعلمِ التعبيرِ في الشريعة أهميةً بالغةً؛ فقد أبدى الله فيه وأعاد في مواطن من كتابه العزيز، سيّما في سورة ﴿يوسف﴾ ﷺ[1].

كما انتشرت في كتب الحديث، والتاريخ، والتراجم، والسير، والأدب، والتفسير، وغيرها، من أخباره ﷺ، وأخبار أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ما يدلُّ على اهتمامهم بهذا العلم، وعنايتهم بأحكامه وما يتضمّنه من الحِكم، والأحكام، والمعاني.

ففي « الصحيحين » من حديث سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال: « كان رسول الله ﷺ يعني مما يُكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحدٌ منكم رؤيا؟ قال: فيُقصُّ عليه ما شاء الله أن يُقَصّ... »[2].

وفي لفظ مسلمٍ ـ رحمه الله ـ (١٥/ ٣٥ نووي) قال ـ رضي الله عنه ـ: « كان النبيّ ﷺ إذا صلى الصّبح أقبل عليهم ـ أي أصحابه ـ بوجهه فقال:

« هل رأى أحدٌ منكم البارحة رؤيا؟ » .

وكأنّ النبيّ ﷺ بكثرةِ سؤاله عن المنامات وحرصه على تعبيرها لأصحابه وعلى مسامع الجميع في المجامع والمساجد يقول لهم: إنّ هٰذه المنامات من لطيف المعاني ما لا يُحسن تفسيره إلاّ الحذاق من الناس، بحُسْن درايتهم، وكمال أهليَّتهم، فليس لكلِّ أحدٍ أن يعبر المنامات، وليس لأيٍّ كان أن يخوض في غمار هذه المسالك؛ فإنها غايةٌ في الأهمية في حياة صاحبها، ولها تعلّقٌ ونبقٌ في واقعه.

« فالرُّؤيا من عجائب صنع الله ﷻ وبديع تكوينه، وهي من أوضح الأدلّة على عالم الملكوت، والخلق غافلون عنها لغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم كلِّه، ولذلك كان القول في حقيقتها من دقائق العلوم التي ينبغي الحرص عليها »[٢].

قال أبو الوليد الباجي ـ رحمه الله ـ: « ولذلك كان ﷺ يقول: « ليس يبقى بعدي من النبوّة إلاّ الرُّؤيا الصالحة »[٣] حضّاً لهم على تعليمها، والاهتبال بها، ليبقى لهم بعده جزءٌ من النبوّة، يدخل عليهم بها مسرّة ويحضّهم على مصلحةٍ، ويزجرهم عن معصيته »[٤].

وممّا يدلّنا على عِظم مَنْزِلَةِ هذا العلم، أنّه مُعظّمٌ في سائر الكتب السماويّة، كما يقولُ الراغب:

«ومن الفراسة علم الرُّؤيا، وقد عظّم الله أمرها في كلّ الكتب المُنَزّلة»[٢].

وذلك أنّه موجودٌ في صنف البشر على الإطلاق، ولا بدّ لهم من السؤال عن أعاجيبها، وأسرارها، ولذلك كان من العلوم التي اشترك فيها علماء أهل الكتاب وغيرهم. ومن يطالع كتاب القادري في «التعبير» يهوله الكمّ الذي نقله عن علماء اليهود، والنّصارى، والمجوس، فضلاً عن نقوله من التفاسير الهنديّة، والبيزنطيّة القديمة، مع ما يسرده من الشواهد التوراتيّة والإنجيليّة، وهي شواهد تغطي بلاد العرب بأسرها آنذاك، فضلاً عن تغطيتها لبلاد ما بين النّهرين، وفارس، والهند، وغيرها.

وقد بلغ من اهتمام جماعة من أهل العلم بعلوم المنامات وأحكامها أن يحفظ أحدهم عشرة آلاف ورقة وثلاث مئة ونيف وسبعين ورقة في علم تعبير الرُّؤيا.

ذكر هذا الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٥/ ٣٨٢ ط الفكر) عن أبي المنجي حيدرة بن أبي تراب علي بن الحسين الأنطاكي؛ ثم قال: «وكان يقول: زدت في هذا على أستاذي أبي القاسم عبد العزيز بن علي الشهرزوريِّ المالكي بحفظ ثلاث مئة ورقة ونيف وسبعين ورقة، لأنه كان يحفظ من علم الرُّؤيا عشرة آلاف ورقة فقط».

ومثله قولُ إمامِهِ شيخ الإسلام أبي العباس بن تيمية ـ رحمه الله ـ في «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٧٣ ط دار القاسم): «وكذلك رؤيا الملك التي عبّرها يوسف ﷺ...فتلك رآها متخيّلة متمثّلة في نفسه، وكانت حقيقتها، الخصب والجدب، فهذا التمثّل، والتخيّل حقٌّ، وصدقٌ في مرتبته، فإنّ تأويل الرُّؤيا مبناها على القياس، والاعتبار، والمشابهة، والمناسبة».

قال ابن العربي في «قانون التأويل» (ص: ١٤٠) بعد كلام طويل: «فقد ثبت والحالة هذه أنّ الرُّؤيا قانون من التأويل على جهة التمثيل، وعلم خفي من الدليل على صحّة الحقائق من المخلوقات، ووجود الباري تعالى وما عليه من الصِّفات».

وقال ابن الأكفانيّ ـ رحمه الله ـ في «إرشاد القاصد» (ص: ١٣٦) وهو يُعرِّف عِلم التعبير: «علمٌ يُتَعَرَّفُ منه الاستدلالُ من المُخَيّلاتِ الحُلُمِيَّةِ على ما شاهدَتْهُ النَّفسُ حالةَ النّومِ من عالَمِ الغيبِ، فخيَّلَتْهُ القُوّةُ المُخَيِّلَةُ بمثالٍ يَدُلُّ عليه في عالَمِ الشَّهادة.

ومن ذلك قول عائشة بنت طلحة ـ رضي الله عنها ـ: «قتلت عائشة أم المؤمنين جانّاً، فَأُتِيت في المنام فرأت فيما يرى النائم أن قائلاً يقول لها: أما والله لقد قتلت مسلماً، قالت: فَلِمَ يدخل على أزواج النبيّ ﷺ؟ فقيل لها: ما تدخل عليك إلا وعليك ثيابك، فأصبحت فزعة وأمرت باثني عشر ألفاً في سبيل الله».

أخرجه ابن أبي شيبه في «مصنفه» (٧/ ٢٤٣ الفكر، أو ٦/ ١٨٢ رقم ٣٠٥٠٥ علميّة)، وابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» كما في «آكام المرجان» (ص: ٦٥)، وفي «الهواتف» (ص: ١١٤-١١٥ رقم ١٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٩-٥٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٥٤-١٦٥٥)، وذكره الذهبيُّ ـ رحمه الله ـ في «السير» (٢/ ١٩٦-١٩٧) بلفظ: «كان جانٌّ يطّلع على عائشة، فحرّجت عليه مرّة، بعد مرّةٍ، فأبى إلاّ أن يظهر، فَعَدَتْ عليه بحديدةٍ، فقتلته، فأُتِيَتْ في منامها، فقيل لها: أقتلت فلاناً، وقد شهد بدراً، وكان لا يطلع عليك لا حاسرةً ولا متجردةً، إلاّ أنّه كان يسمع حديث رسول الله ﷺ فأخذها ما تقدّم وما تأخّر، فذكرت ذلك لأبيها فقال: تصدّقي باثني عشر ألفاً ديّته».

ومن ذلك أيضاً: ما أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢/ ٣٣٠/ ١٠٦٩) والطبراني في «الأوسط» (٤٩٠٤) بسندٍ حسنٍ ـ كما في «السلسلة الصحيحة» (٢٧١٠) ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: «رأيت فيما يرى النائم، كأنّي تحت شجرة، وكأنّ الشّجرة تقرأ سورة ﴿ص﴾، فلما أتت الشّجرةُ على السجدة سجدت، فقالت في سجودها: اللّهم اكتب لي بها أجراً، وحطّ عنّي بها وزراً، وأحْدِثْ لي بها شُكراً، وتقبّلها منّي، كما تقبّلتَ من عبدك داود سَجْدتَه. فلمّا أصبحتُ؛ غدوتُ على النبيّ ﷺ فأخبرته بذلك، فقال ﷺ: «سجدتَ أنت يا أبا سعيد؟»، فقلت: لا، فقال ﷺ: «أنت كنتَ أحقَّ بالسُّجود من الشَّجرة»، فقرأ رسول الله ﷺ سورة ﴿ص﴾ حتى أتى على السَّجدة، فقال في سجوده ما قالت الشَّجرة في سجودها».

ويقول جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: أتى الطّفيلُ بن عمرو الدّوسي رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! هل لك في حصنٍ حصينٍ ومَنَعةٍ؟ قال: حِصنٌ كان لدوسٍ في الجاهلية، فأبى ذلك رسول الله ﷺ للّذي ذخر للأنصار، فلمّا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، هاجر إليه الطُّفيل بن عمرو، وهاجر معه رجلٌ من قومه، فاجتووا المدينة، فمرض فجزع، فأخذ مَشاقص له فقطع بها براجمه، فَشَخَبت يداه، حتى مات، فرآه الطّفيلُ بن عمرو في المنام، فرآه وهيئته حسنة، ورآه مغطّياً يديه، فقال له: ما صنع بك ربُّك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ، فقال: مالي أراك مغطّياً يديك؟ قال: قيل لي، لن نُصلح لك ـ أو منك ـ ما أفسدتَ، فقصّها الطُّفيل بن عمرو على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «اللهم وليديه فاغفر».

أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٧٠-٣٧١) ومسلمٌ في «صحيحه» (١١٦) (٢/ ١٣٠-١٣١ نووي) والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٧٦)، والطحاويّ في «المشكل» (١/ ١٨٥)، وجماعة.

ويقولُ زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: «أُمروا أن يسبِّحوا دُبر كلِّ صلاة ثلاثاً وثلاثين، ويحمدوا ثلاثاً وثلاثين، ويكبِّروا أربعاً وثلاثين، فأتى رجلٌ من الأنصار في منامه فقيل له: أمركم رسول الله ﷺ أنْ تسبِّحوا دُبُرَ كلِّ صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتحمدوا ثلاثاً وثلاثين وتكبِّروا أربعاً وثلاثين؟ قال: نعم، قال: فاجعلوها خمساً وعشرين، واجعلوا فيها التَّهليل، فلمّا أصبح أتى النَّبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له، فقال: «اجعلوها كذلك».

أخرجه أحمد (٥/ ١٨٤) ـ ومن طريقه المزي في «تهذيب الكمال» (٢٤/ ١٠٦) ـ والنسائيُّ في «السنن الكبرى» (١/ ٤٠١-٤٠٢/ ١٢٧٣ و١٢٧٤)، وفي «عمل اليوم والليلة» (١٥٧)، وفي «المجتبى» (٣/ ٧٦)، والترمذي في «الجامع» (٣٤١٣)، والدارمي (١٣٥٤)، وابن خزيمة (٧٥٢)، وابن حبان (٢٠١٧) في «صحيحيهما»، والطبراني في «الكبير» (٤٨٩٨)، و«الدعاء» (٧٣١)، والطحاوي في «المشكل» (٤٠٩٧)، والبيهقيُّ في «دلائل النبوة» (٧/ ٢٣)، وإسنادهُ صحيحٌ.

قال السندي ـ رحمه الله ـ في «حاشيته على سنن النسائي» (٣/ ٧٦-٧٧): «وليس هذا من العمل برؤيا غير الأنبياء، بل هو من العمل بقوله ﷺ، فيمكن أنه عَلِمَ بحقيقة الرُّؤيا بوحي أو إلهام أو بأيِّ وجه كان» اهـ.

وأيضاً قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «كان رجلان من بَلِيٍّ ـ حيٌّ من قُضاعَة ـ أسلما مع النبي ﷺ، واسْتُشهد أحدهما وأُخّر الآخر سنة، قال طلحة بن عبيد الله: فأُريتُ الجنة -يعني في المنام- فرأيت فيها المؤخّر منهما أُدْخِل قبل الشّهيد، فعجبتُ لذلك، فأصبحتُ، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أليس قد صام بعده رمضان وصلّى ستة آلاف ركعة -أو كذا وكذا ركعة- صلاة السَّنَةِ».

أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٣) من طريق محمد بن عمرو، حدّثنا أبو سلمة عن أبي هريرة، وإسناده حسن، وله شاهد من حديث طلحة بن عبيد الله، وفيه: قول النبيّ ﷺ: «من أي ذلك تعجبون؟» فقالوا: يا رسول الله! هذا كان أشدّ الرّجلين اجتهاداً، ثم استُشهد في سبيل الله ﷻ، ودخل هذا الآخر الجنّة قبله؟ فقال: «أليس قد مكث بعده سنة؟» قالوا: بلى، قال: «وأدرك شهر رمضان فصامه؟» قالوا: بلى، قال: «وصلّى كذا وكذا سجدة في السَّنة؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال ﷺ: «فما بينهما أبعد مما بين السّماء والأرض» اهـ.

والحديث صحيح[٢] إن شاء الله، رواه الإمام أحمدُ (١/ ١٦١-١٦٢، ١٦٣) و(٢/ ٣٣٣)، وأبو يعلى (٦٤٨)، والشاشي (٢٧) في «مسانيدهم»، وابن ماجه (٣٩٢٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٧/ ٢٤٨-٢٤٩ رقم ٢٩٨٢ الإحسان)،

وعن عبد الله بن شداد ـ رضي الله عنه ـ قال: «إن نفراً من بني عُذرة ثلاثةً أتوا النبيّ ﷺ فأسلموا، قال: فقال النبيّ ﷺ: «من يكفنيهم؟»[2] قال طلحة: أنا، قال: فكانوا عند طلحة، فبعث النبي ﷺ بعثاً، فخرج فيه أحدهم فاستشهد قال: ثم بعث بعثاً، فخرج فيهم آخر فاستشهد، قال: ثم مات الثالث على فراشه، قال طلحة: فرأيتُ هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنّة، فرأيتُ الميت على فراشه أمامهم، ورأيتُ الذي استشهد أخيراً يليه، ورأيت الذي استشهد أوّلهم آخرهم، قال: فدخلني من ذلك، قال: فأتيت النبيّ ﷺ فذكرت ذلك له، قال: فقال رسول الله ﷺ: «وما أنكرتُ من ذلك؟ ليس أحد أفضل عند الله من مؤمنٍ، يعمَّر في الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله» اهـ.

أخرجه أحمد (١/ ١٦٣)، وعبد بن حميد (١/ ١٥٤رقم ١٠٤ المنتخب)، والبزار

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في « مجموع مؤلفاته » (١٤٣/٥): « عبارةُ الرُّؤيا علمٌ صحيحٌ ذكره الله في القرآن، ولأجل ذلك قيل: لا يعبر الرُّؤيا إلاّ من هو من أهل العلم بتأويلها، لأنها من أقسام الوحي » أهـ.

وفي « الرُّوح » (ص: ٤٤) لابن القيم ـ رحمه الله ـ: « وأبطل من قال إنّ هذه كلّها علوم وعقائد في النّفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنيّة بالنوم، وهذا عين الباطل والمحال، فإنّ النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التي يخبر بها الميت، ولا خطرت ببالها ولا عندها علامةٌ عليها ولا إمارةٌ بوجهٍ ما » أهـ[1].

ويقولُ الحافظ ابن منده في « جزء ترجمة الطبراني » (٣٤٢/٢٥ آخر المعجم الكبير): « ومن يُنكر الرُّؤيا ويزعم أنها ليست بحقيقة فهو من الجاحدين للنبوّة، فنسأل الله تعالى الإيمان بالغيب، ونعوذ به من الشكّ والرّيب » أهـ.

يقولُ ابن عبد البرّ ـ رحمه الله ـ في « التمهيد » (١/ ٢٨٥): « ولا أعلم بين أهل العلم والدِّين والحق، من أهل الرأي والأثر خلافاً في أنّ الرُّؤيا فيما وصفت لك، ولا ينكر الرُّؤيا إلاّ أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة » اهـ.

وقال ـ رحمه الله ـ في « التمهيد » (١/ ٤٩) أيضاً: « وعلم تأويل الرُّؤيا من علوم الأنبياء وأهل الإيمان، وحسبك بما أخبر الله من ذلك عن يوسف عليه السلام وما جاء في الآثار الصِّحاح فيها عن النبيّ ﷺ، وأجمع أئمة الهدى من الصَّحابة والتابعين ومن بعدهم علماء المسلمين ـ أهل السنّة والجماعة ـ على الإيمان بها، وعلى أنها حكمةٌ بالغةٌ،

يقولُ الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: «والرُّؤيا من الله حقٌّ، إذا رأى صاحبها في منامه ليس ضِغثاً، فقصَّها على عالمٍ، وصدَقَ فيها تأويلها العالِم على أصل تأويلها الصَّحيح، ولم يحرِّف، فالرُّؤيا تأويلها حينئذٍ حقٌّ، وقد كانت الرُّؤيا من الأنبياء وحياً، فأيّ جاهلٍ أجهل ممّن يطعن في الرُّؤيا؟ ويزعم أنّها ليست بشيء، وبلغني أن من قال هذا القول لا يرى الاغتسال من الاحتلام، وقد روي عن النبي ﷺ: «إنَّ رؤيا المؤمن كلامٌ يكلّم به الرَّبُّ عبدَهُ»، وقال ﷺ: «إنَّ الرُّؤيا من الله»» اهـ[1].

وقال أبو الطيب في «قطف الثمر» (ص: ١١١-١١٢): «والرؤيا من الله تعالى وحيٌ حقٌّ...وتأويلها حقٌّ...فأيُّ جاهلٍ أجهل ممّن يطعن في الرؤيا، ويزعم أنها ليست بشيء»[٢].

وقال عثمان بن سعيد الدّاني (ت: ٤٤٤هـ) ـ رحمه الله ـ في «الرّسالة الوافية لمذهب أهل السُّنّة في الاعتقادات، وأصول الديانات» (ص: ١٩٠-١٩٢): «ومن قولهم ـ أي: أهل السنّة والجماعة ـ إنّ التصديق بالرُّؤيا واجبٌ، والقولُ بإثباتها لازمٌ، وأنّها جزءٌ من أجزاء النبوّة، كما ورد الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ، وروى أنس، وأبو هريرة عنه أنّه قال: «الرُّؤيا الحسنة من الرّجل الصّالح جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة»[٣]. ومعنى ذلك، أنّ الأنبياء عليهم السلام يُخبِرون بما سيكونُ، والرُّؤيا تدلُّ على ما سيكون.

والخلاصة التي نقرّرها هنا: إنّ القراءة في كتب (تفسير الأحلام) على وجه فيه اعتماد، وإسقاط ذلك على (رؤى الناس)، وتعبيرها لهم دون علم بهذا الفن، مما لا يجوز شرعاً. بل إن التّصنيف في ذلك على النحو المبثوث في كتب التفسير المعروفة اليوم، بلا توضيحٍ لأحكام التفسير، وآدابه، هو أيضاً مما لا يجوز ولا يحل، وذلك لكثرة ما يقع فيه العامّة من الفساد وسوء الاعتقاد؛ وقد نصّ على ذلك أهل العلم.

ففي «شرح زرّوق على الرسالة» (٢/ ٤٢٠): «قيل لمالك: أيعبّر الرُّؤيا مَن لا علم له بها؟ فقال: أبالنبوّة يلعب؟!، يشير بذلك للحديث المذكور».

وقال الشّيخ علي الصّعيدي في «حاشيته على شرح كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني» (٢/ ٤٦٥): «فلا يجوز له تعبيرها بمجرد النّظر في كتب التفسير كما يقع الآن، فهو حرامٌ؛ لأنّها تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان وأوصاف الرائين» اهـ.

وقال أحمد بن غنيم النفراوي في «الفواكه الدواني» (٢/ ٤٥٧): «ولا يجوز له تعبيرها بمجرّد النّظر في كتاب التفسير، كما يفعله بعض الجهلة، يكشف نحو ابن سيرين، عندما يقال له: أنا رأيتُ كذا، والحال أنه لا علم له بأصول التّعبير، فهذا حرام، لأنها تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان وأوصاف الرّائين، فعلمها غويص، يحتاج إلى مزيد معرفة بالمناسبات».

وفي «شرح أقرب المسالك» (٥/ ٢٨٥) للشيخ الدّردير: «والعلم بتفسير الرُّؤيا ليس من كتب، كما يقع للنّاس من التّعبير من ابن سيرين، فيحرم تفسيرها بما فيه، بل يكون بفهم الأحوال والأوقات وفراسةٍ وعلمٍ بالمعاني» اهـ[1].

وقال إبراهيم الأدهم في «تفسير الأحلام» (ص: ٢٢٠-٢٢١) في وصف (التفسير الشعبي) للأحلام: «هي الطريقة السَّاذجة جدًّا، إذ تعتمد على تفسيرات مقننة ومعلّبة وجامدة، تفسر معطيات الحلم أو الرُّؤيا وفق قواعد مدرجة، إما في كتب التَّفسير القديمة، أو عالقة في مخيلة وذهن ووجدان المجتمع.

مثال ذلك: أننا نجد في كتب تفسير الأحلام الشَّائعة بين أيدي الناس، والتي تضيقُ بها رفوف المكتبات، ولا يكاد يخلو منها بيتٌ، تحت حرف من الحروف الأبجدية، نجد كلمات تبدأ بنفس الحرف، مثل: أرنب، وأسود، وأسد. فإذا برؤية الأرنب تعني الذّريَّة الكثيرة، وإذا برؤية الأسود تدلّ على الحزن والضِّيق، وإذا برؤية الأسد تدل على شجاعة صاحب الحلم... وهكذا. إنَّ هذه الطَّريقة لا طائل تحتها، ولا يمكن أن تكون أسلوباً سليماً وطريقةً صحيحةً لتفسير الأحلام.

فقد يرى الشَّجاع والجبان الأسد في المنام، فكيف يحقّ لنا أن نصف الجبان بالشُّجاع إذا رأى الأسد؟ وقد يرى السَّقيم السَّواد، فتفسِّره الكتب الشَّعبية بالموت والحزن، وقد يرى آخر السَّواد، ويتحقق بامتلاكه الحدائق والمزارع الكثيرة، فأين مصداقية هذه الكتب، وهذا النَّوع من التَّفسير؟ إذ إنَّ الحلم الواحد، قد يراه أكثرُ من شخص، ويفسَّر لكل شخص بحسب حالته ومكانته ووضعه الصِّحي والنَّفسي والاجتماعي والاقتصادي والعائلي، وبحسب المكان والزمان، وبحسب عمر الشَّخص. وتفسير الأحلام للمرأة غير تفسيره للرَّجل والصَّبي.

وللشيخ العثيمين ـ رحمه الله ـ مشاركةٌ في هذه المسألة المهمّة، فقد سُئِل كما في «فتاوى نور على الدرب» (٢/ ٤٨٣-٤٨٤) ما نصُّه:

أودّ الاستفسار عن صحة كتب تفسير الأحلام، مثل كتاب «تفسير الأحلام» لابن سيرين، وخاصّة أنه يربط الأحلام بقضايا الأجل والرِّزق والخير والشَّرّ، فما حكم التَّصديق والتَّعامل بهذه الكتب؟، مع العلم أنّه فيها آياتٌ من القرآنِ وأحاديث من أحاديث النبي ﷺ.

فقال ـ رحمه الله ـ: «الجواب على هذا السؤال: أنّي أنصح إخواني المسلمين ألا يقتنوا هذه الكتب، ولا يطالعوا فيها، لأنها ليست وحياً منزلاً، وإنّما هي رأي قد يكون صحيحاً، وقد يكون غيرَ صحيح، ثمّ إنَّ الرُّؤى قد تتَّفق في رؤيتها، وتختلف في حقيقتها بحسب مَن رآها، وبحسب الزَّمن، وبحسب المكان، فإذا رأينا رؤيةً على صورة معينة، فليس معنى ذلك أنَّ كل ما رأينا على هذه الصُّورة يكون تأويله كتأويل الرُّؤيا الأولى، بل تختلف، وقد نعبّر الرُّؤيا لشخصٍ بكذا، ونعبّر نفس الرُّؤيا لشخص آخر بما يخالف ذلك.

قال أبو العبّاس القرافي ـ رحمه الله ـ في « الفروق » (٤/ ٤١١ ط العلميّة): « ولا يعبّر الرُّؤيا إلاّ مَنْ يعلمها، ويحسنها، وإلاّ فليترك، وسُئل مالك ـ رحمه الله ـ: أيفسّر الرُّؤيا كلّ أحد؟ قال: « أبالنبوّة يلعب!! »، قيل له: أيفسرها على الخير وهي عنده على الشرّ لقول من يقول: الرُّؤيا على ما أوّلت؟ فقال: « الرُّؤيا جزء من أجزاء النبوّة أفيتلاعب بأمر النبوّة » أهـ.

وهذا القول من الإمام مالك ـ رحمه الله ـ نفيسٌ جدّاً في هذه المسألة، ويصلح سدًّا في وجه المتهاونين في هذا العلم الخطير، وقد نقله عنه جماعةٌ من أهل العلم مستدلّين بها على هذا، منهم: ابن عبد البرّ في « التمهيد » (١/ ٢٨٨)، وابن العربي في « أحكام القرآن » (٢/ ١٨٠٤)، و« عارضة الأحوذي » (٣/ ١٤٤ علميّة)، وأبو العبّاس في « المفهم » (٦/ ١٤)، والقرطبيُّ في « تفسيره » (٩/ ٨٤)، وعياضٌ في « إكمال المعلم » (٧/ ٢٢٦)، وابن مفلح في « الآداب الشرعيّة » (٣/ ٤٣٣)، والباجي في

قال البغويُّ ـ رحمه الله ـ في « شرح السُّنَّة » (١٢/ ٢١٢): « ففي هذا إرشادٌ للمستعبر لموضع رؤياه، فإن رأى ما يحب، فلا يحدِّث إلاَّ من يحبُّ ».

وقال الخطابي ـ رحمه الله ـ في « معالم السنن » (٤/ ١٣٠): « قال أبو إسحاق الزجّاج في قوله: « لا يقصها إلاَّ على وادٍّ أو ذي رأي » : الوادُّ لا يحبُّ أن يستقبلك في تفسيرها إلاَّ بما تحبُّ.. وأمّا ذو الرأي؛ فمعناه: ذو العلم بعبارتها، فهو يخبرك بحقيقة تفسيرها، أو بأقرب ما يعلم منها، ولعلّه أن يكون في تفسيره موعظة تردعك عن قبيحٍ أنتَ عليه، أو تكون فيها بُشرى؛ فتشكر الله على النِّعمة فيها » أهـ.

وقال ابن حجر في « فتح الباري » (١٤/ ٤٧٦): « لا يستحب لمن لم يتدرب على علم التّأويل أن يسارع إلى التّأويل » .

وقال شيخنا العلامة الألبانيُّ ـ رحمه الله ـ: «والحديثُ صريحٌ بأنّ الرُّؤيا تقع على ما تُعبّر، ولذلك أرشدنا رسول الله ﷺ إلى أن لا نقصّها إلاّ على عالِم أو ناصح، لأنّ المفروض فيهما أن يختارا أحسن المعاني في تأويلها فتقع على وفق ذلك، ولكن مما لا ريب فيه أنّ ذلك مقيدٌ بما إذا كان التَّعبير مما تحتمله الرُّؤيا ولو على وجهٍ وليس خطأً محضاً وإلاّ فلا تأثير لها حينئذٍ، والله أعلم».

قال: «وأشار إلى هذا المعنى الإمام البخاري في كتاب «التَّعبير» من «صحيحه» (٤/ ٣٦٢) بقوله: باب من لم ير الرُّؤيا لأول عابرٍ إذا لم يصب» أهـ[1].

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٤/ ٤٧٠): «والحكمة أنّه إذا حدّث الرّجل بالرُّؤيا الحسنة مَنْ لا يُحبّ قد يفسّرُها له بما لا يحبّ، إمّا بغضاً أو حسداً، فتقع على تلك الصّفة، أو يتعجّل لنفسه من ذلك حزناً ونكداً، فأُمر بترك تحديث مَنْ لا يحبُّ بسبب ذلك» أهـ.

إذاً؛ فالأمر متعلّقٌ بمسألةٍ غيبيّة، خطيرةٍ، لها أثرها على حياة النّاس، ولهذا أرشدنا ﷺ أن نقصّها على العالِم بها دون غيره؛ سيما إذا علمت أنّها تقع على ما عبّرت عليه كما سلف.

وتأمّل أيضاً كتاب الله ﷻ حيث أخبرنا أنّ يوسف ﷺ لمّا رأى رؤياه من سجود الكواكب والشمس والقمر له، لم يخبر بها سوى والده يعقوب ﷺ ثمّ لم يحدّث بها غيره، بل كان من نُصح يعقوب ﷺ له أن قال: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف:٥].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في «تفسيره» (٩/ ٨٤): «وهذه الآية أصلٌ في أن لا تقصّ الرُّؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يُحسن التّأويل فيها» اهـ.

وعليه: «فينبغي حُسْنُ الارتياد لمواضع الرُّؤيا، كما ينبغي استعبارها عند العالم الموثوق برأيه وأمانته»[1].

ومثله أيضاً قول الباجي في «المنتقى» (٩/ ٤١٥ علميّة): «ولا يعبِّر الرُّؤيا إلاّ من يُحسنها، وأمّا من لا يعلم ذلك ولا يُحسنها فليترك».

وقال الشيخ حمود بن عبد الله التويجري ـ رحمه الله ـ في «كتاب الرؤيا» (ص: ١٦٨-١٦٩): «وليعلم المتسرّعون إلى تأويل الرُّؤيا أنّ ما ذُكر في هذا الفصل من التّأويل ليس هو من التوقيف الذي يقطع به في تأويل الأشياء التي ذُكِرتْ فيه، وإنّما هو من باب التقريب الذي قد يكون في التأويل فيه صواباً وقد يكون غير صواب.

وقد تقدّم ما ذكره ابن عبد البرّ عن هشام بن حسان أنّه قال: كان ابن سيرين يُسْئَل عن مئة رؤيا فلا يُجيب فيها بشيء إلاّ أنّه يقول: اتق الله وأحسن في اليقظة، فإنّه لا يضرُّك ما رأيت في النّوم. وكان يُجيب في خلال ذلك ويقول: إنّما أجيب بالظنّ، والظنُّ يُخطئُ ويُصيب.

وذلك أنّ الرُّؤيا تقع على ما تعبّر، فإنْ كان المعبِّر لها جاهلاً باستخراج الصواب منها، فلعلّه يُفسد أكثر ممّا يُصلح، بل هو حقيقةٌ لا يكون إلاّ كذلك، ولهذا قال الخليل بن شاهين ـ رحمه الله ـ: «لا ينبغي أن تقص الرُّؤيا إلاّ على معبِّر، ويجب على مَنْ لا يعرف علم التَّعبير أن لا يعبِّر رؤيا أحد، فإنّه يأثم على ذلك لأنها كالفتوى، وهو في الحقيقة علمٌ نفيس»[2].

وهذا الذي قاله ـ رحمه الله ـ حقٌّ لا ريب فيه، وقد قال ﷺ: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ [يوسف:٤٦]؛ وقال تعالى: ﴿ أَفْتُونِى فِي رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف:٤٣].

وثبت عنه ﷺ أنّه قال: «عجبتُ لصبرِ أخي يُوسف وكَرَمه ﷺ ـ والله يغفر له ـ حيث أُرسل إليه ليُستفتى في الرُّؤيا ولو كنتُ أنا لم أفعل حتى أخرج»[3].

ولهذا لمّا فسّر ملأ العزيز رؤياه في السبع بقراتٍ وقالوا له: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف:٤٤] لم تقع رؤياه أضغاثاً، بل كانت رؤياه صادقةً مهمةً وكان لها تأويلاً مهمّاً، وما كان سقوط كلامهم، إلاّ لأنّه كان بعيداً عن التّأويل الصّحيح للرُّؤيا المذكورة.

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ في «تفسيره» (٩/ ١٣٢) عند هذه الحادثةِ من سورة يوسف: «وفي هذا دليلٌ على بطلان قولِ من يقول: إنّ الرُّؤيا على أوّل ما تعبّر، لأنّ القوم قالوا: أضغاث أحلامٍ، ولم تقع كذلك، بل وقعتْ كما فسّرها يوسف ﷺ بسنيّ الجدب والخصب..»اهـ.

ونحوه في «أحكام القرآن» (٤/ ٣٨٨-٣٨٩) للجصاص، و«إكمال المُعْلم» (٧/ ٢٢٦-٢٢٧) للقاضي عياض، و«الفتوحات الربانيّة» (٣/ ١٨٨) لابن علان، وغيرهم.

والعابر الفقيه العالم ربّما لا يجيب الرّائي عن رؤياه لمصلحةٍ تظهر له، إذ ليس كلُّ الرؤى تعبّر على مسامع أصحابها، بل الأمر كما قال القاضي عياض في «إكمال المعْلِم» (٧/ ٢٢٦): «يجوز سكوت العابر وكتمه عِبارة الرُّؤيا، إذا كان فيها ما يُكره أو في السُّكوت عنها مصلحةٌ، أو في ذكرها مضرّةٌ، وفتنةٌ...» أهـ.

ولعلّه لأجلِ هذا كان محمد بن سيرين ـ رحمه الله ـ يُسأل عن كثيرٍ من الرؤى فلا يُجيب فيها بشيء، إلاّ أن يقول: «اتَّقِ الله في اليقظة».

قال هشام بن حسان ـ رحمه الله ـ: «كان محمد بن سيرين يُسأل عن مئة رؤيا، فلا يُجيب فيها بشيء إلاّ أن يقول: «اتق الله وأحسن في اليقظة، فإنّه لا يضرُّك ما رأيت في المنام» وكان يجيب خلال ذلك ويقول: «إنّما أجيب بالظَّنِّ، والظَّنُّ يخطئ ويصيب» أهـ[١].

وأخرج ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ في «مختلف الحديث» (ص: ٤١٧) و«عبارة الرؤيا» (ص: ١٩١ رقم ١٢٨ بتحقيقنا) عن قرّة بن خالد، أو أبي المقدام قال: «كنت أحضر ابن سيرين يُسأل عن الرُّؤيا، فكنتُ أحزِرُهُ يعبّر من كلِّ أربعين واحدةً».

ثمّ قال ابن قتيبة: «وهذه هي الصَّحيحة التي تجول حتى يعبُرها العالم بالقياس، الحافظ للأصول، الموفّق للصواب، فإذا عبَرها وقعت».

قال عبد الغني النّابلسي ـ رحمه الله ـ: « وقد تنصرف الرؤيا عن أصلها من الشر بكلام الخير والبرّ، وعن أصلها من الخير بكلام الرفث والشرّ، وإن كانت الرؤيا تدل على فاحشة وقبيح سترت ذلك ورويت عنه بأحسن ما تقدر من اللّفظ.. »[1].

ويروى عن علي بن أبي طالب القيرواني العابر أنّه قال: « لا تُأوّل رؤيا الخائف إلاّ بيا يُحبه من انفراج همّه، وذهاب خوفه »[2].

والمقصود أنّ الرؤيا تقع على ما تعبَّر، كما جاء في الحديث الصحيح، فلا يجوز لكلّ أحد أن يتطاول على هذا الفن إلاّ بدراية أصوله وفهم علومه، ويُعد مباحثه

وعليه؛ فلو قصّ عليك إنسانٌ رؤيا منام، وفي ظاهره ما يوهم الشرّ أو يُنبيء عنه، فواجبٌ عليك تعبيره على الخير؛ لأجل موافقةِ خبرِ عائشة، وعموم الأحاديث الأخرى، وتعبيرك لا يكون إلاّ عن حكمةٍ ونباهةٍ فهماً من بعض معالم الرؤيا، ودون الخروج عن عناصرها الرئيسة فيها، وأمّا إذا اقتضت معالمها وعناصرها أن تأوّل على الشرّ دون غيره، مع مناسبتها لحال صاحبها، فذلك فقط الذي يخرج عن القاعدة السابقة لموافقة سائر الأخبار. وأمّا أن تعبرها على الشرّ المحض، فهذا فيه نظرٌ كما يظهر من الأحاديث المتقدّمة، والله تعالى أعلم.

والمقصود أنّ الرؤيا لا تُأوّل على الخير وهي بظاهرها شرٌّ محضٌ، لا تحتمل وجهاً من وجوه الخير، أي: أنّ المفسّر لها لا يجد فيها وجهاً ولا محملاً من الخير يحملها عليه، والأفضل في حقِّهِ حينئذٍ السكوت، والله أعلم.

ولذلك «كان محمد بن سيرين ـ رحمه الله ـ يُسأل عن مئة رؤيا، فلا يُجيب فيها بشيء، إلاّ أن يقول: «اتق الله وأحسن في اليقظة، فإنّه لا يضرك ما رأيت في المنام» وكان يجيب خلال ذلك ويقول: «إنّما أجيب بالظن، والظن يخطئ ويصيب»[٢].

وأيضاً قال القاضي عياض في «إكمال المعلم» (٢٢٦/٧): «يجوز سكوت العابر وكتمه عِبارة الرؤيا، إذا كان فيها ما يُكره، أو في السكوت عنها مصلحة، أو في ذكرها مضرّةٌ وفتنةٌ على الناس».

وعلى هذا يُحمل الأثر المذكور عن الإمام مالك ـ رحمه الله ـ لما قيل له: «أتُعَبّر الرؤيا على الخير وهي على الشر؟، فقال: معاذ الله، أبالنبوة يُلعب، هي أجزاء النبوّة».

ويمكن أن يكون مراد الإمام غير هذا والله أعلم، ولكن تأمل في قوله: «لا يُعبّر الرؤيا إلاّ من يُحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت، قيل: أيعبرها كلُّ أحدٍ؟ قال: معاذ الله، أبالنبوةِ يُلعب، هي أجزاء النبوّة»[٣].

وقد كان جماعة من الصَّحابة الكرام يجدون شيئاً من ذلك على عهد النبيّ ﷺ ويتأذّون به. فها هو أبو سلمة ـ رضي الله عنه ـ يخبرنا عن نفسه، فيقول:

« كنت أرى الرّؤيا أعرى[1] منها، غير أني لا أزمّل[2]، حتى لقيتُ أبا قتادة فذكرت ذلك له، فقال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: « الرّؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حُلْماً يكرهه فلينفث عن يساره ثلاثاً، وليتعوّذ بالله من شرّها؛ فإنها لا تضرّه » .

قال أبو سلمة: إن كنت لأرى الرؤيا أثقل عليّ من جبل، فما هو إلا أن سمعتُ بهذا الحديث فما أباليها » .

رواه الإمام مسلمٌ في « صحيحه » (١٥/١٦-١٩ نووي)، وهو في « صحيح البخاري » (٦٩٨٤) من غير القصّة المذكورة.

ويدلُّ على تلعّب الشيطان بالإنسان حال نومه: ما رواه الإمام مسلم في « صحيحه » (١٥/ ٢٧ نووي) من حديث جابر - رضي الله عنه - قال:

« أتى النبيّ ﷺ رجل وهو يخطب، فقال: يا رسول الله! رأيتُ فيما يرى النائم البارحة كأنّ عنقي ضربت، فسقط رأسي، فاتبعته فأخذته، ثمّ أعدته مكانه؛ فقال رسول الله ﷺ: « إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدّثنّ النّاس » .

وفي رواية أخرى: « أنّ الرجل لمّا أخبر النبيّ ﷺ أنه قطع رأسه، ضحك النبيّ ﷺ، ثمّ زجره عن التحدّث بتلاعب الشيطان به، وكان يخطب بهذا في النّاس بعد ذلك »[1].

وروى الإمام أحمد في « مسنده » (٢/ ٣٤٤)؛ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: « جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: إني رأيت رأسي ضرب، فرأيته يتدهده، فقال النبيّ ﷺ: « يعمد الشيطان إلى أحدكم فيتهوّل له، ثمّ يغدو يخبر النّاس »[2].

والمقصود: أنّ عالم الأحلام والرؤى عالمٌ غريب، والإنسان منا يستسلم له بطبيعته حين النوم، وربما تحكّم الشيطان بمخيلته وما يعرض له من الصور والمرائي، فيأتي بما يفزعه ويرعبه، ويدخل الحزن على قلبه ونفسه، كما يصبح منقبض النفس أحياناً، مهموماً أحياناً أخرى.

وقد بحث أهل العلم آداب الرؤيا بقسميها الصالحة والطالحة وهي آداب مهمة

(32)

❁ الأدب الأول والثاني: التعوذ بالله من شرها وشر الشيطان.

ودليل ذلك قوله ﷺ: « .. فإذا حلم حلماً يكرهه فلينفث عن يساره ثلاثاً، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره »[2].

وقال ﷺ: « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه »[3].

﴿ما ورد في صيغة الاستعاذة من الأخبار﴾

وقد ورد في صيغة الاستعاذة بعض الأخبار أشار لها أهل العلم، كقول السيوطي ـ رحمه الله ـ في «الديباج» (٥/ ٢٨١): «وقوله ﷺ: «وليتعوّذ بالله من شرّها»، ورد أنه يقول: «اللّهم إنّي أعوذ بك من عمل الشيطان، وسيئات الأحلام».

والحديث المقصود: أخرجه ابن السُّنّي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٧٦٦)، وفيه المسيب بن شريك وهو متروكٌ، وبه ضعّفه الحافظ ابن حجر كما في «الفتوحات الربّانية» (٣/ ١٩٠-١٩١)، وشيخنا العلاّمة الألباني ـ رحمه الله ـ في «الضعيفة» (٦/ ٧١ رقم ٢٥٥٧).

ومن ذلك أيضاً: ما أخرجه سعيد بن منصور في « سننه » - كما في « الفتح » (١٤/ ٣٩٧) -، وعبد الرزاق في « المصنّف » (١١/ ٢١٦ رقم ٢٠٣٥٩)، وابن أبي شيبة في « المصنّف » (٧/ ٢٤٥ الفكر)، أو (٦/ ١٨٣ـ١٨٤ رقم ٣٠٥١٩ علميّة)، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤/ ١٩٠ رقم ٤٧٦٩ علمية) عن إبراهيم بن يزيد النخعي ـ رحمه الله ـ أنّه قال: « إذا رأى أحدكم في منامه ما يكره، فليقل إذا استيقظ: أعوذ بما عاذت به ملائكة الله ورسله، من شرّ رؤياي هذه، أن يصيبني فيها ما أكره في ديني ودنياي».

قال الحافظ في « فتح الباري » (١٤/ ٣٩٧ الفكر): « أخرجه سعيد بن منصور، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، بأسانيد صحيحة» .

وقال كذلك: « وورد في صفة التعوّذ من شرّ الرُّؤيا أثرٌ صحيحٌ..ثمّ ذكره» .

❁ الأدب الثالث: النفث والتفل والبصق

وقد ورد الدليل على ذلك في الحديثين الماضيين عند البخاري ومسلم وقد تقدم ذكرهما ويظهر لك في كلٍّ من الحديثين أنّ النفث يكون عن اليسار مكرراً ثلاث مرّات.

قال الحافظ ابن حجر: « النفث طردٌ للشيطان الذي أحضر الرؤيا، وخصت به اليسار، لأنها محل للأقذار ونحوها، والتثليث للتأكيد »[1].

قال ابن مفلح ـ رحمه الله ـ في «مصائب الإنسان» (ص: ١٦٨): «ويتفل عن شماله ثلاثاً، إخساءً للشيطان، كما يتفل على الشيء القذر يراه أو يذكره، ولا أقذر من الشيطان، فأمر ﷺ بالتفل عند ذكره، وأمّا خصوصية الشمال دون اليمين، فلعلَّ طريق الشيطان إلى ابن آدم لدعائه ما يكره من قِبلها»[١].

وقال المناوي ـ رحمه الله ـ في «الفيض» (١/ ٤٥٠): «قدَّم النبيّ ﷺ التحول على التفل في أحاديث، وأخّره في أحاديث أخرى، وفائدته الإشارة إلى أنه كيف فعل كفاه، فلا يشغل نفسه بصفة الترتيب وصورته، والله أعلم».

❁ الأدب الرَّابع: التحوّل عن جنبه الذي استيقظ عليه

وقد مرّ دليله في حديث أبي قتادة عند الإمام مسلم وفيه: « وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه » ؛ والتحول هنا عملٌ بدنيٌّ، يدفع العبد لنوع من النشاط والحركة، ومفاده: التفاؤل بتحول تلك الحالة التي كان عليها إلى أخرى أفضل[٢].

ولعلّ التحوّل قبل النفث أنجع في استحضار معاني الاستعاذة ولطائفها؛ وذلك لأنه بتحوله وتنقله يكون قد دفع شيئاً من النعاس وثِقَلِ النوم، وهذا معلوم ضرورة.

وقد أمر النبيّ ﷺ الناعس في خطبة الجمعة أن يتحول عن مكانه[٣]، وما هذا إلاّ لطرد النعاس، والله أعلم.

❁ الأدب الخامس: أن لا يذكر المنام المكروه لأحدٍ أبداً

ففي «صحيح البخاري» (٦٩٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «إذا رأى أحدكم الرُّؤيا يحبّها فإنَّما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليحدِّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره؛ فإنَّما هي من الشيطان، فليستعذ من شرِّها، ولا يذكرها لأحد؛ فإنها لا تضرُّه».

والأحاديث في هذا المعنى كثيرةٌ سبق معنا شيءٌ منها، وقد ذكر أهل العلم أن الحكمة من عدم ذكر المنام السوء أنّ الذي يسمعه ربما يفسره تفسيراً مكروهاً مذموماً على ظاهر صورتها، وكان ذلك محتملاً في وجوه التأويل، فيقع المنام كما أوِّل، فيزداد صاحبه همّاً وحزناً ونكداً، ولهذا كان الواجب كتمانه، وأن يعلم صاحبه أنه منام شيطان لا يضره ولا يؤذيه، كما جاء في الحديث.

قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ: «حافظ على ما ذكر في الحديث من الاستعاذةِ والكتم تَرَ برهانه، فإنّ كثيراً من الناس وإن استعاذ يتحدث بها رآه، فأوصيك أن لا تفعل»[٢].

❁ الأدب السادس: الصلاة بعدها

والمقصود: أنّ الذي يرى الرُّؤيا المفزعة المرعبة، واستيقظ على أثرها في المنام في حقه أن يصلي لله ﷻ ركعتين، أو ما قدر عليه من نافلة الصلاة.

ودليل ذلك: ما رواه الإمام مسلم (٢٢٦٣) وغيره من حديث أبي هريرة

❁ الأدب السابع: أن يتعوذ بالله بالتعويذة الواردة

أن يتعوذ حين رؤية المنام المفزع بالتعويذة الواردة عنه ﷺ في عين المسألة وقد مر

۞ الأدب الثامن: أن يسأل الله من خيرها

أي: من خير الرؤيا، وذلك أنّ العبد حينما يرى الرؤيا المكروهة؛ فإنها ربما حملت له في طياتها خيراً وهو لا يدري ـ فحري به أن يسأل الله من خيرها، وهذا في المنفعة، فكأنه يستعيذ بالله من شرّها ـ وإن كان ثمة فرق بينهما. وقد قال ﷺ: «**إذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فليتحوّل، وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليسأل الله من خيرها، وليتعوّذ بالله من شرّها**»[٢].

وكما ترى فإنّ النبيّ ﷺ قد فَصل بين الأمرين، ولهذا كان الصواب أن نفصل بينهما في العمل، وأن نراعي كِلا الأدبين، فَلِكُلٍّ أثره ودليله، والله أعلم.

ولمّا كانت الرؤيا المهولة قد تكون من الله على صورة الإنذار ـ وهذا وجه محتمل ـ ووجهها الثاني: أن تكون من تهاويل الشيطان وكيده؛ أمر النبيّ ﷺ وأشار إلى سؤال الله خيرها إن كانت من الله ولها في الواقع تأويلاً ومعنىً. وكذلك أشار علينا وأرشدنا أن نتعوذ بالله من شرها إن كانت شراً محضاً من الشيطان ـ عليه لعنة الله ـ فهي بلا تأويل ولا معنى، والله أعلم.

❁ الأدب التاسع: أن يعلم أنّه لا يتضرّر منها

وكيف يتضرر منها وما هي إلاّ محضُ ألاعيب الشيطان، التي مفادها تحزين ابن آدم، وإنما يكون أثرها في ليل النائم لا في يقظته، والله سبحانه يقول: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:١٧].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨].

ومرَّ معنا في حديث أبي قتاده أنه ﷺ قال: « وليعلم أنها لن تضرّه » وفي رواية مسلم: « وليتعوّذ بالله من شرِّها فإنها لا تضرّه» .

وفي لفظ البخاري: « ولا يذكرها لأحدٍ فإنَّها لا تضرّه »[١].

ولهذا قال أهل العلم: « فإن رأى العبد الرُّؤيا السيئة ثم تعوّذ بالله من شرِّها، ولم يخبر بها أحداً، فإنَّها لا تضرّه وقد جعل الله ما ذكر سبباً للسلامة من المكروه المترتب على الرُّؤيا، كما جعل الصدقة وقاية للمال »[٢].

هذا ما تحصَّل لنا جمعه من آداب الرُّؤيا المكروهة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

معنى كون الرُّؤيا الصَّادقة من أجزاء النبوّة

ثبت في السنّة الصحيحة أنّ الرُّؤيا الصادقة جزءٌ من أجزاء النبوّة، كما في حديث ابن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبيّ ﷺ: « الرُّؤيا الصالحةُ جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوّة »(١).

وفي حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: « رؤيا المسلم جزء من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة »(٢).

ومثله في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: « الرُّؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة »(٣).

ومن حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: « الرُّؤيا الصَّالحة جزءٌ من خمسةٍ وعشرين جزءاً من النبوّة »(٤).

وفي المسألةِ جملةٌ من الأحاديث الصحيحة الصريحة في ذلك، وهي على كثرتها تتنوّع في ذكر الأجزاء المذكورة.

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في « الفتح » (١٤/ ٣٨٧): « وردت الروايات على عشرة أوجه، أقلّها جزءاً من ستة وعشرين، وأكثرها من ستة وسبعين، وبين ذلك أربعين، وأربعةً وأربعين، وخمسةً وأربعين، وستة وأربعين، وسبعة وأربعين، وتسعة وأربعين، وخمسين، وسبعين، وأصحها مطلقاً الأوّل، ويليه السبعين» .

وذكر العراقي بعض هذه الروايات، وقال ابنه في « طرح التثريب » (٨/ ٢٠٩): « فهذه ثمان روايات، أقلّها من ستة وعشرين، وأكثرها سبعون، وأصحها وأشهرها ستة وأربعون، فإن ملنا الى الترجيح فرواية الستة والأربعين أصح كما تقدّم »[1].

وفي « المفهم » (٦/ ١٧-١٨) لأبي العباس القرطبي ـ رحمه الله ـ قال: « أكثرها في « الصحيحين » وكلُّها مشهورة، فلا سبيل إلى أخذ أحدهما وطرح الباقي كما فعل المازري[2] فإنه قد يكون بعض ما ترك أولى مما قبل، إذا بحثنا عن رجال أسانيدها، وربما ترجح عند غيره غير ما اختاره هو» .

والصّواب أنّه ليس في هذا الاختلاف تعارضٌ أو اضطرابٌ يسقطها، وقد أجاب أهل العلم عنها، بأن الرؤى الصالحة تنالُ من أجزاء النبوة على قدر صِدقها وصلاح رائيها، وعلى قدر اختلاف الناس في هذا تكون درجات الأجزاء من النبوة، فمن خلصت نيته وعبادته لربه ويقينه وصدقه وصدق حديثه كانت رؤياه أصدق، ونال أجزاء من النبوة أكثر، كما أنها كانت من النبوة أقرب، فأشبه أن يكون اختلاف تنوعٍ لا تضاد.

قال الطحاويُّ ـ رحمه الله ـ: «فإن قال قائلٌ: وهذا اضطرابٌ شديدٌ، مرّةً يروون أنّها جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوّة، ومرّة يروون أنّها جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة، ومرّة يروون عن ابن عباس ما لا يجوز أن يكون قاله إلاّ توقيفاً أنّها: جزءٌ من خمسين جزءاً من النبوّة.

فكان جوابنا له في ذلك ـ بتوفيق الله ﷻ وعونه ـ: أنّ جميع ما رويناه من الآثار في هذا محتملٌ ما لا تضادَّ فيه...»[1].

وقال أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد» (١/ ٢٨٣-٢٨٤): «اختلاف آثار هذا الباب، في عدد أجزاء الرُّؤيا من النبوّة، ليس ذلك عندي باختلاف تضادٍّ، وتدافعٍ، والله أعلم، لأنّه يحتمل أن تكون الرُّؤيا الصالحة من بعض من يراها، على ستةٍ وأربعين جزءاً، أو خمسةٍ وأربعين جزءاً، أو أربعةٍ وأربعين جزءاً، أو خمسين جزءاً، أو سبعين جزءاً، على حسب ما يكون الذي يراها من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدّين المتين، وحسن اليقين، فعلى قدر اختلاف النّاس فيما وصفنا، تكون الرّؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد، فمن خلصت له نيّته في عبادة ربّه ويقينه، وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوّة أقرب، كما أنَّ الأنبياء يتفاضلون، والنبوّة كذلك، والله أعلم، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء:٥٥]» أهـ.

وهذا الذي قاله ابن عبد البرّ، والطحاوي، هو الذي استحسنه الطبري، وابن العربي، وغيرهما، كما في «الذخيرة» (١٣/ ٢٧٠) للقرافي[2].

وهو أجمع الأقوال من حيث اعتبار دلالة المطابقة، والتضمّن، والالتزام، ويتفرّع عنه ما ذكروه من وجوه الجمع، والنبوّة تتفاوت، والإيمان شعبٌ وأجزاءٌ كما ذكروا.

وقد اختار هذا من المتأخرين شيخنا العلاّمة محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ كما في حاشيته على « مختصر صحيح مسلم » (ص: ٤٠٠) للمنذري.

وقال في « الصحيحة » (٤/ ٤٨٧): « هذا الاختلاف راجعٌ على الرّائي، فكلّما كان صالحاً كانت النّسبة أعلى »[1].

ولهذا قال الكُشْمِهينيُّ ـ رحمه الله ـ: « الرُّؤيا نور من الله، فمن كان باطنه نورانياً كان في التصديق بكرياً كأبي بكر، ومن كان باطنه مظلماً كان في التكذيب خفاشاً كأبي جهل، وبقية الناس بين هاتين المنزلتين، كلٌّ منهم بقدر ما أعطي من النور... »[2].

ومن جميل ما قيل أيضاً: « أنّ الرُّؤيا انكشافٌ لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق الا برؤيا الرجل الصالح الصادق، ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه، فكان ما يراه أضغاثاً من الأحلام لا معنى لها، ولهذا أمر بالطهارة عند النوم إشارةً لطهارة الباطن فهو الأصل، وما طهارة الظاهر إلاّ كالتتمة »[3].

واختار ابن رشد الحفيد غير هذا، فقال في «البيان والتحصيل» (١٧/ ٢٦١-٢٦٢): «والمعنى: أنّ الرؤيا الصالحة وهي الحسنة التي تبشر بالخير في الدنيا وفي الآخرة، لا مدخل فيها للشيطان، وهي من الله جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، إذا رآها الرجل الصالح. وروي من خمسة وأربعين جزءاً، وروي من سبعين جزءاً، والمعنى في هذه التجزئة، أنّ ما يصب في تأويله من هذه الرؤيا التي هي على الصفة المذكورة، يتخرج على ما يعبَّر به مما يخطأ في تأويله، فلا تخرج على ما يعبر يكون جزءاً من خمسة وأربعين أو من ستة وأربعين أو من سبعين، إذ لو خرجت كلها ما تعبر لكانت كالنبوءة في الإخبار بالمغيبات. وهذا هو الفرق بين الأنبياء وبين سائر الناس، لأنّ رؤيا سائر الناس قد يخطأ في تأويلها فلا تخرج على ما تعبر. وقد يصاب في تأويلها فتخرج على ما تعبر. وما يصاب في تأويله منها هو الجزء من النبوة، لكونه في معنى النبوة.

فالرؤية الصالحة المبشرة من الله ﷻ، جزء من الأجزاء المذكورة في الحديث، إن كانت من الرجل الصالح، وإن لم تكن من الرجل الصالح فلا يقالُ فيها، وإن كانت من الله ﷻ إنها جزء من خمسة وأربعين ولا من ستة وأربعين، ولا من سبعين.

وقال الخطابي ـ رحمه الله ـ في « معالم السنن » (٤/ ١٢٩): « الرؤيا جزءٌ من أجزاء النبوة في الأنبياء صلوات الله عليهم دون غيرهم، وكان الأنبياء يوحى إليهم في منامهم كما يوحى إليهم في اليقظة »[١].

وقال أبو زرعة العراقي ـ رحمه الله ـ في « طرح التثريب » (٨/ ٢١٤): « ولا يتخيّل من هذا الحديث أنّ رؤيا الصالح جزء من أجزاء النبوّة، فإنّ الرُّؤيا إنما هي من أجزاء النبوّة في حقّ الأنبياء عليهم السلام وليست في حقّ غيرهم من أجزاء النبوّة، ولا يمكن أن يحصل لغير الأنبياء جزء من النبوّة، وإنّما المعنى: أنّ الرُّؤيا الواقعة للصالح تشبه الرُّؤيا الواقعة للأنبياء التي هي في حقهم جزء من أجزاء النبوة على طريق التشبيه».

وفي « فتح الباري » (١٤/ ٣٨٧)، و« المواهب اللّدنيّة » (١٣/ ٥١٩-٥٢٠)، و« شرحه للزرقاني » (١٠/ ٣٩): « قال بعض العلماء: إن وقعت الرّؤيا من النبيّ فهي من أجزاء النبوّة الحقيقية، وإن وقعت من غير النبيّ فهي من أجزاء النبوّة على سبيل المجاز ».

وقيل: « المقصود أنّها من أجزاءِ عِلْمِ النبوّة، وعلم النبوّة باقٍ، والنبوّة غير باقية »[٢].

وقيل: بل هي جزءٌ من أجزاء النبوّة، لأنَّ في الرؤيا ما يُعجِزُ ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، وهذا لا يكون إلاّ في معجزات الأنبياء"[٢].

وفي هذه المعاني المتقدمة أبلغُ ردٍّ على من قد يتوهم بقاء النبوة، "إذ الحصول على الجزء لا يعني الحصول على الكلّ، فإن جزء الشيء غير الشيء، مثاله: لو قرأ رجل شيئاً من القرآن وهو قائم لا يسمّى مصلّياً، وإن كانت قراءة القرآن جزءاً من الصّلاة"[٣].

وتأمّل معي: كيف كانت الرُّؤيا الصَّادقة من المسلم الصَّالح تعلمه بالخير أو تنذره بالشر - فهي في هذه الخصيصة - أضحت مشابهة لاطلاعه على الغيب، وهذا لا يكون إلا بأمر الله، وهي بهذا تشبه الوحي بالنسبة للأنبياء، حيث يعلمونهم بالغيب بأمر الله تعالى، فمن هنا حصل نوع الشبه، فكانت الجزئية.

ولهذا قال ﷺ:

«لم يبق من النبوّة إلاّ المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرُّؤيا الصَّالحة»[1].

هذا وقد اعتنى الزركشي في بيان مفردات الأجزاء المذكورة من النبوّة، فقال في «البحر المحيط» (١/ ٦٢): «وقد اجتهدتُ في تحصل الستة والأربعين ما هي؟ فبلغتُ منها إلى الآن اثنتين وأربعين، وقد ذكرتُها في كتاب «الوصف والصفة»، وأنا في طلب الباقي».

الكافر وإن صدقت رؤياه، فإنّه لا يتحصّل على جزءٍ من النبوّة

لا شكَّ أنَّ الكافر، والمخلّط قد تصدق رؤياهما، ومعنى صدقها تحقّقها على وجهها، ووقوعها كما هي، وليس تعني بصدقها أنّ صاحبها أصاب جزءاً من أجزاء النبوّة، ذلك أنّ هذا النوع المذكور في حديث النبيّ ﷺ فيه شرط مهم، وهو في قوله: «الرُّؤيا الحسنة من الرّجل الصالح» فشرطه صلاح الرّائي.

أي: أنّ الرّؤيا قد تقع من الصّالح ومن غير الصّالح، ولكنّها لا تكون من أجزاء النبوّة إلاّ إذا وقعت من الرّجل الصّالح، وهذا هو الذي فهمه أهل العلم من ظاهر الخبر ونصّصوا عليه، وهذه جملة من نقولاتهم:

قال ابن عبد البرّ ـ رحمه الله ـ في «التمهيد» (٥/ ٥٧): «ظاهر الأحاديث أن لا تكون الرؤيا من النبوّة جزءاً من ستةٍ وأربعين جزءاً، إلاّ على شرط الرجل الصالح، أو منه، أي: يراها أو ترى له».

وقال ابن العربي ـ رحمه الله ـ في «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٨٩): «رؤيا المؤمن الصالح هي التي تنسب الى أجزاء النبوّة، ومعنى صلاحها استقامتها وانتظامها، قال: وعندي أن الرؤيا من الفاسق لا تعد في أجزاء النبوة، وقيل: تُعَدُّ في أقصى الأجزاء، وأما رؤيا الكافر فلا تعد أصلاً»[1].

وقال الحافظ في «الفتح» (١٤/ ٤٠٠ الفكر): «الرُّؤيا الصالحة إنّما كانت من أجزاء النبوة؛ لأنها من الله ﷻ، بخلاف التي من الشيطان؛ فإنّها ليست من أجزاء النبوّة».

« قال المهلّب: إنّها ترجم البخاري بقوله: (رؤيا أهل السجن وأهل الفساد والشرك)؛ لجواز أن يكون في رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤية الفتيين صادقة، إلاّ أنّه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إلى النبوة في التجزئة، لقوله ﷺ: « الرؤيا الحسنة يراها العبد الصالح، أو ترى له، جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة» .

فدلّ هذا على أنّه ليس كلّ ما يصح له تأويل من الرؤيا، وله حقيقة، يكون جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، قال أبو الحسن بن أبي طالب: « وفي صدق رؤيا الفتيين حجة على من زعم أن الكافر لا يرى رؤيا صادقة» .

فإن قال: يجوز أن نسمّي ما يراه الكافر صالحاً؟ قيل له: نعم، وبشارة أيضاً، كانت الرؤيا له أو لغيره من المؤمنين، لقوله ﷺ: « الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له » ؛ فاحتمل هذا الكلام أن يراها الكافر لغيره من المؤمنين، وهو صالح للمؤمنين، كما أنّ ما يراه الكافر مما يدل على هدايته وإيمانه، فهو صالح له في عاقبته، وتلك حجّةٌ الله عليه، وزجر له في منامه، وقد خرّج البخاري في بعض طرق حديث عائشة: « أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة »، أي: الصادقة؛ لأنها صالح ما يرى في المنام من الأضغاث وأباطيل الأحلام، وكما أنبأ الله الكفار في اليقظة بالرسل وبالمؤمنين من عباده دون المشركين من أعدائه، قامت الحجة على المشركين بذلك إلى يوم الدين، فكذلك يجوز إنباؤهم في المنام بما يكون حجّة عليهم أيضاً » اهـ

وقال أبو العباس القرطبي ـ رحمه الله ـ في « المفهم » (٦/١٨-١٩): « المسلم الصّادق الصّالح هو الذي تناسب حاله حال الأنبياء، فأُكرِم بنوعٍ مما أكرم به الأنبياء وهو الاطلاع على الغيب، وأما الكافر والفاسق والمخلِّط فلا، وإنْ صدقت رؤياهم أحياناً، فذاك كما يصدق الكذوب، وليس كلُّ من حدّث عن غيبٍ، يكون خبره من أجزاء النبوة، كالكاهن، والمنجّم »[1].

الرُّؤيا الصادقة تأتي على صورٍ وأشكالٍ عدّة

والمقصود بهذه المقدّمة أنّ الرُّؤيا الصادقة التي تكون من الله: قد تأتي صاحبها على صورٍ وأوجهٍ عدةٍ، كأن يرى في منامه البشرى له في دينه أو دنياه؛ فَيُسَرُّ بها، وينشرح لها صدره. وقد يراها في نفسه أو غيره ممن يحب وتكون بمنافع متجددةٍ، أو نقم مندفعةٍ.

وربما رآها على صورة التحذير من شيء، أو الإنذار من خطرٍ محدِّقٍ به.

ولعلّها تأتيه على صورة الإرشاد والنصيحة، فهو يراها مهولة له مفزعة، ومع هذا فهي ليست من تهاويل الشيطان التي يحزن بها ابن آدم، بل هي إنذار من الله له على سوءٍ أو بلاءٍ سيقع به، كيما يستعد له. «فالرؤيا الصالحة على قسمين: قسمٌ مبشرٌ، وقسمٌ محذِّرٌ، وقد تخرج على مآرب كثيرةٍ.

وقد رأى كسرى في المنام زوال ملكه وظهور محمد ﷺ، وكان كذلك.

ورأى النمرود حين رمى الخليل إبراهيم عليه السلام بمنجنيق أن الخليل في روضة خضراء، وفيها عين جارية، فكان كذلك.

ورأى فرعون أنه دخل البحر وجنوده فغرقوا، فكان الأمر كذلك»[1].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في «تفسيره» (٩/ ٨٥): «الرؤيا الصالحة ليست بشرى على الإطلاق. فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله ﷻ، لا تسر رائيها، وإنما يريها الله ﷻ المؤمن رفقاً به ورحمةً، ليستعد لِنُزول البلاء قبل وقوعه، فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية لذلك.

قال الحافظ ابن حجر: « الرؤيا الصادقة أصلها حق تخبر عن الحق، وهي بشرى وإنذار ومعاتبة لتكون عوناً لما ندب إليه... »[٢].

ومن ذلك ما رواه البخاري - رحمه الله - (٧٠٣٩) عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: « رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس، خرجت من المدينة حتى نزلت بمهيعة، فتأولتها أن وباء المدينة نُقل إلى مهيعة وهي الجحفة »[٣].

« وعليه: فالتعبير بالمبشرات خرج للأغلب؛ فإنّ من الرؤيا ما تكون منذرةً، وهي صادقة يريها الله للمؤمن رفقاً به، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه »[٢].

« وربّما كان في رؤياك موعظةٌ تردعك عن قبيح أنت عليه، أو يكون فيها بشرى فتشكر الله عليها »[٣].

ولذلك قال الله ﷻ لنبينا ﷺ عن يوم بدر العظيم: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الأنفال:٤٣].

قال الآلوسي ـ رحمه الله ـ: « وحكمة إراءتهم إياه ﷺ قليلين أن يخبر أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ فيكون ذلك تثبيتاً لهم، وعليه فلو أراه الله جماعتهم في عُدَّةٍ وعتادٍ لأخبر أصحابه ففشلوا؛ وذلك بما يدخل عليهم من هيبة الإقدام والقتال »[٤].

وتأمّل معي في رؤيا العزيز ملك مصر كيف كانت مخيفةً له مرعبةً، وكيف كان فيها صلاح أمره ونجاته مع شعبه ورعيته، فهي في الحقيقة بشرى في آجلها ومعناها وإن كانت مهولةً في عاجلها وظاهرها.

آداب القاصّ والمعبّر

تتضمّن علوم التعبير أنواعاً من الآداب الشرعيّة المتعلّقة بالقاصّ للرّؤيا، والمعبّر لها، وبعض هذه الآداب له تعلّق وثيق في صحّة التعبير، وأثره في التأويل.

ولذلك اهتمّ علماء التعبير وشرّاح كتب السُّنّة بهذه الآداب واعتبروا لها شأناً مهمّاً.

ونحن في هذه المقدّمة نبسط الكلام على هذه الآداب، علماً أنَّ أكثرها قد سبق ذكره في ثنايا الأحاديث والآثار السالفة.

آداب القاصّ للرّؤيا

* **الأدب الأوّل**: وأوّل آداب القاصّ للرّؤيا، وأهمّها: **استعبارها عند العالم الناصح الشفيق.**

أي العالم بتعبير الأحلام، وصاحب الخبرة والدراية في أصول هذا الفنّ الشريف، وقد تقدّم أنّه لا يحلُّ لمن لم يتدرب على التأويل أن يسارع إلى تعبير المنامات وتأويلها[1].

والأصل في هذا الأدب: قول النبيّ ﷺ: «**لا تُقصُّ الرُّؤيا إلاّ على عالمٍ أو ناصحٍ**».

أخرجه الترمذي في «سننه» (٦/ ٤٧٣ تحفة) (رقم ٢٢٨٠)، والدارميُّ في «سننه» (٢/ ١٣٦)، وأبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٤/ ٧٨-٧٩ رقم ٨٤٥)، والطبرانيّ في «الصغير» (ص: ٣٢٧ رقم ٨٨٦)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٢٤١) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: « إنَّ الرُّؤيا تقع على ما تعبّر، ومَثَل ذلك مثلُ رجلٍ رفع رِجْلَهُ فهو ينتظر متى يضعها، فإذا رأى أحدكم رؤيا؛ فلا يحدّث بها إلاّ ناصحاً أو عالماً »[1].

وهذا اللّفظ صريحٌ في التنبيه على هذا الأدب، والعناية به، فقد ذكر ﷺ وقوع الرُّؤيا على حَرْفِ تعبيرها، ثمَّ ثنّى بالتنبيه على هذا الأصل المهمّ، فقال: « فلا يحدّث بها إلاّ ناصحاً أو عالماً ».

فاشترط اتّصافَه بالعلم، والنّصحَ الدالَّ على المحبّة والمودّة، كما في حديث أبي رَزِين ـ رضي الله عنه ـ السابق: « الرُّؤيا على رجل طائرٍ ما لم تعبّر، فإذا عبّرت وقعت، ولا يقصّها إلاّ على وادٍّ، أو ذي رأي »[2].

قال الخطابيُّ ـ رحمه الله ـ في « معالم السنن » (٤/ ١٣٠علمية): « معنى هذا الكلام: حسن الارتياد لموضع الرؤيا، واستعبارها عند العالم بها، الموثوق برأيه وأمانته »[3].

في « فتح الباري » (١٤/ ٣٩٤ الفكر): « قال ابن العربي المالكيُّ: أمَّا العالم: فإنّه يؤوِّلها له على الخير ما أمكن، وأمَّا النَّاصح فإنَّه يرشده إلى ما ينفعه، ويعينه عليه... » .

وقال الخطابي أيضاً (٤/ ١٣٠-١٣١):

وتأمل أيضاً في كتاب الله ﷻ، كيف أخبرنا الله أنّ يوسف عليه السلام لما رأى رؤياه من سجود الكواكب والشمس والقمر له، لم يخبر بها سوى والده يعقوب عليه السلام ثمّ لم يحدّث بها غيره، بل كان من نُصحِ يعقوب عليه السلام له أن قال: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف: ٥] الآية.

قال القرطبي - رحمه الله - في « تفسيره » (٩/ ٨٤): « وهذه الآية أصلٌ في أن لا تقصّ الرؤيا على غير شفيقٍ، ولا ناصحٍ، ولا على من لا يُحسن التأويل فيها» .

ولهذا نصّص أهل التعبير على أنّ صاحب الرُّؤيا لا يقصّ الرُّؤيا على معبّرٍ، وفي مصره أو حيّه أو إقليمه معبرٌ أحذق منه، لأنّ فرعون يوسف عليه السلام لما قصّ رؤياه على معبّري بلده، قالوا: أضغاث أحلام، ثمّ لم تبطل رؤياه، وسأل عنها يوسف عليه السلام فعبّرها له، فخرجتْ كما عبّرها[1].

قال ابن غنّام في « كتاب التعبير » (ورقة: ٦): « ولا يقصّ رؤياه على أحدٍ وفي مقرّه أو إقليمه معبّرٌ أحذقُ مِنه، لأنّ فرعون لما قصّ رؤياه على معبّري بلده، وقالوا: أضغاث أحلامٍ، ولم يكن كذلك، فعبّر يوسف عليه السلام فوقعت كما عبّر »[2].

❁ الأدب الثاني: الحذر من الكذب في الرُّؤيا.

ذلك بأن يأتي بها على وجهها، وحرفها، دون زيادةٍ في ألفاظها أو معانيها، فإن كان فيها ذكر أشخاصٍ، أو أماكن، أو أرقام، ونحوها ذكرها بأعيانها، وصورها، وأعدادها، دون إخلالٍ بشيءٍ منها لطالما كان يذكرها.

وقد مرَّ معنا أنَّ من الكذب المحرَّم في الرُّؤيا: الزيادةُ في مبناها، ومعناها[1].

قال أبو سعيد الواعظ في «الأحلام» (ص: ٣٠): «وينبغي لصاحب الرُّؤيا أن يتحرَّى الصِّدق، ولا يُدخِلُ في الرُّؤيا ما لم يُر فيها، فيفسد رؤياه، ويُجْعَلُ عند الله من الآثمين».

وقال عبد الغني النابلسي في «تعطير الأنام» (ص: ١٧): «قال بعضهم: إنّ الكاذب في رؤياه كمدّعي النبوة كاذباً، لأنّه ورد في الحديث: «أنّها جزءٌ من النبوّة» ومدّعي الجزء كمدّعي الكلّ!».

وقال الحافظ في «الفتح» (١٤/ ٤٧٢ الفكر): «وذكر أئمة التعبير، أنَّ من أدب الرّائي أن يكون صادق اللّهجة».

وقال القادريُّ في «التعبير في الرّؤيا» (١/ ١٠٤-١٠٥ عالم الكتب): «قال المعبِّرون من المسلمين: إذا رأيت رؤيا، فاقصصها على ذي علم، ورأي، ولا تقصصها على... عدوٍّ لك، ولا على أهل الجهالة للأمور».

وقال أبو بكر الأحسائي في «جامع تفاسير الأحلام» (ص: ١٢): «وينبغي أن لا تُقَصَّ الرُّؤيا إلاّ على عالمٍ بأصول التعبير، وقوانينه، مُجَرِّبٍ في الإصابة، حليمٍ، ذي تأنٍّ وتدبرٍ، وأن لا يقصّها الرّائي إلاّ على من يحبه».

والمقصود أنَّ صاحب الرُّؤيا، يراعي في أوّل خطواته أن يقصّ رؤياه على العالم المحبّ، وإلاّ عاد بالضرر على نفسه بسبب إهماله لهذا التوجيه النبويّ الكريم.

❁ الأدب الثالث: عدم إهمال شيءٍ من الرّؤيا حين قصّها.

وذلك أنّ بعض عناصر الرّؤيا يكون ذا قيمةٍ، وأهميّةٍ شديدةٍ عند المعبِّر الحاذق، إذا أراد تعبيرها.

ولذلك كان قصُّ الرُّؤيا منتزعاً من تتبع جميع ما ورد فيها، ولو كان محرجاً مسبباً للخجل، أو نحوه.

قال أبو العبّاس القرطبيُّ في «المفهم» (٦/ ٣١)[1]: «ومعنى ليقصّها، أي: ليذكر قصّتها، وليتبعها جزئياتها، حتى لا يترك منها شيئاً، مأخوذ من قصصت الأثر، إذا تبعته».

❁ الأدب الرابع: إذا عبَّر رؤياه معبِّرٌ حاذقٌ مُجَرَّبٌ بالإصابة بما يوافق أصول الرُّؤيا اعتمد على تعبيره.

قال الخليل بن شاهين في «الإشارات في علم العبارات» (ص: ٨٧٦): «ويقصُّ الرَّائي رؤياه على المعبّر، ومهما عبَّر له، يعتمدُ عليه، ولا يعدلُ إلى غيره».

وأمّا إذا عبّرها المعبر بعيداً عن أصول الرُّؤيا وعناصرها، فله أن يطلب تأويلها عند غيره، وسبق تنصيصُ القرطبيِّ في «تفسيره» (٩/ ٨٤ علمية) وغيره عليه.

❁ الأدب الخامس: النوم على الجنب اليمين، وعلى وضوء:

أكثر المعبّرين يذكرون هذا في آداب الرؤيا الصالحة ويجعلونه سبباً لصلاح الرؤيا أو عدمه.

ويقولون: «يستحبّ للرجل أن ينام على وضوء؛ لتكون رؤياه صالحة»[2].

ولا شكَّ أنَّ السنَّة دلَّت على استحباب النّوم على الجنب الأيمن مع الوضوء قبلها، ولكن لا تعلّق لذلك بصلاح الرُّؤيا وصدقها، وكذا بين ما يعرض للإنسان من أضغاث الأحلام، وأخلاط الرّؤى، ولا سيما أنّ المعبّرين يذكرون إمكان صدق رؤيا الكافر، والمخلّط، وغيرهما، فضلاً عن الجنب والحائض[1]، والله تعالى أعلم.

❁ **الأدب السادس: أن لا يقصّ المنام المخيف على أحد أبداً.**

بل يوقن أنّه من الشيطان، وأنّه لا يضرّه في اليقظة، كما سبق تفصيله في آداب الرُّؤيا المكروهة مع دليله[2].

وأما إذا كانت الرؤيا مهولةً في أصولها، وعناصرها، وما وقع في أحداثها، لكن صاحبها لم يلحقه منها خوفٌ أو رعبٌ، وإنّما لحقه استغرابٌ، وذهولٌ، فليعرضها على معبّرٍ حاذقٍ، فإنّها ربّما كانت من الرُّؤى الصّادقة المعبَّرة.

وثبت عنه ﷺ أنّه رأى في المنام امرأةً سوداء، ثائرةَ الرّأس خرجت من المدينة، حتى قامت بمهْيَعَة فقال: « أوّلتُ ذلك أنَّ وباءً نُقِل إلى مهْيَعَة، وهي: الجحفة »[3].

فانظر كيف أوّل الرُّؤيا، رغم ما فيها من عنصر الخوف، وعلى هذا تحمل مثل هذه الرؤى، كما سبقت الإشارة إليه في آداب الرؤيا المكروهة.

❁ الأدب السابع: أن يقصَّ رؤياه على المعبّر بنفسه.

ذلك أنَّ العابر قد يحتاج إلى سؤاله عن أشياء تتعلّق بالرّؤيا، وتصريفها، حتىّ يتوصّل بهذه الأسئلة إلى معرفة تأويلها، ويجوز له أن يوكّل غيره في قصّ الرُّؤيا كما صنع ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ لمّا رأى رؤياه المشهورة وفيها يقول: جاءني مَلَكان، في يدِ كلٍّ واحدٍ منهما مِقْمَعَةٌ من حديد، يُقْبلا بي إلى جهنّم، ثمّ أراني لقيني مَلَكٌ في يده مقمعةٌ من حديد، فقال: لن تراع، نِعْمَ الرّجل أنت لو تكثر الصّلاة!! فانطلقوا بي، حتى وقفوا بي على شفير جهنم، فإذا هي مطويةٌ كطيّ البئر له قرون كقرون البئر، بين كلِّ قرنين مَلَكٌ بيده مِقْمَعةٌ من حديد، وأرى فيها رجالاً معلّقين بالسلاسل، رؤوسهم أسفلهم، عرفتُ فيها رجالاً من قريش، فانصرفوا بي عن ذات اليمين. قال: فقصصتُها على حفصة، فقصّتها حفصة على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ عبد الله رجلٌ صالحٌ، لو كان يقوم من اللّيل». قال نافع: «فلم يزل بَعْدُ يكثر الصلاة»[٢].

قال الحافظ في «الفتح» (١٤/ ٤٥٥ الفكر): «وفي هذا الحديث: مشروعيّة النيابة في قصّ الرّؤيا».

وينبغي أن يكون المقصود: إذا كان المعبّر يعرف صاحب الرؤيا معرفة جيدة، يستطيع من ورائها تأويل الرّؤيا بما يتناسب مع حاله، كما هو ظاهرٌ في الحديث.

آداب المعبِّر

* الأدب الأول: وأمّا آداب المعبّر للرؤى، فأشهرها: أن يكون ذا دينٍ وعلمٍ.

قال الخليل بن شاهين ـ رحمه الله ـ في «الإشارات» (ص: ٦٠٥ الفكر): «وينبغي أن يكون المعبر ذا حذاقةٍ وفطنةٍ، صدوقاً في كلامه، حسناً في أفعاله، مشتهراً بالديانةِ والصِّيانة، بحيث لا يُنكر عليه فيما يعبره للنّاس لشهرة صدقه، ولذلك سمى الله يوسف ﷺ بالصِّدِّيق، وأن يكون عارفاً بالأصول في علم التعبير».

وقال أبو سعيد الواعظ في «تفسير الأحلام» (ص:٢٠): «والعابرُ محتاجٌ إلى إصلاح حاله، وطعامه، وشرابه، وإخلاصه في أعماله، ليرث بذلك حُسْن التوسُّم في النّاس عند التعبير».

«وقال المعبِّرون أيضاً: ينبغي أن يكون في المعبِّر خصالٌ محمودةٌ، والديانة، والسماحة، والتُّقى، والحكم، والصيانة، والصمت عمّا لا يدري، وترك الهذْر في كثرة الكلام»[١].

❁ الأدب الثاني: استيعاب سؤال السائل حين قصّ الرُّؤيا.

قال العلاّمة ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ في « تعبير الرُّؤيا » (ص: ١٩١ - بتحقيقنا): « وتَفهَّمْ كلامَ صاحب الرُّؤيا وتَبيَّنه، ثمّ اعرضه على الأصول» .

وزاد عليه أبو سعيد الواعظ في « تفسير الأحلام » (ص: ٣١): « ولا تُصدرنَّ رأيك في مسألةٍ حتى تفتشها، وتعرف وجهها، ومخرجها، وقدرها، واختلاف الطبائع التي وصفت لك، فإنّك عند ذلك تبصر ما عمل الشيطان في تخليطها وفسادها عليك، وإدخال الشبهات والحشو فيها، فإنْ أنتَ صفّيتها من هذه الآفات التي وصفت لك، ووجدت ما يحصل من كلام التأويل صحيحاً، مستقيماً، موافقاً للمحكمة، فذلك تأويلها صحيح. وقد بلغني أن ابن سيرين كان يفعل ذلك إذا وردت عليه رؤيا، مكث فيها ملياً من النهار، يسأل صاحبها عن حاله ونفسه وصناعته، وعن قومه ومعيشته، وعن المعروف عنده، من جميع ما يسأله عنه والمجهول منه، ولا يدع شيئاً يستدلّ به ويستشهد به على المسألة إلاّ طلب علمه »[1].

وقال القادريُّ في « التعبير في الرُّؤيا » (١/١٠٦): « ينبغي للمعبِّر أن يستغرق السؤال بأجمعه من السائل على قدر السؤال، للشريف والوضيع، والنّصح لهم في حسن العبارة، وإلقاء الأضغاث منها، وإفهامها إيّاهم، حتى يخرج للسائل جواباً

❁ الأدب الثالث: عدم الإستعجال في تعبير الرُّؤيا.

يقول ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ في «تعبير الرؤيا» (ص:١٩١ - بتحقيقنا): «فعليك بالتثبت فيما يردُ عليك، وترك التعسُّف، ولا تأنف أن تقول لما أشكل عليك: لا أعرفه، فإنّ محمد ابن سيرين كان إمام الناس في هذا الفن، وما كان يُمسك عنه أكثر مما كان يُفسِّره.

حدَّثني سهل بن محمد قال: حدثني الأصمعي عن أبي المقدام أن قرة بن خالد قال: كنت أحضر ابن سيرين يُسأل عن الرؤيا، فكنتُ أحزره يعبِّر من كلِّ أربعين واحدةً، أو قال: حزروه»[٢].

وقال ابن غنام ـ رحمه الله ـ في « الرؤيا » (ورقة: ٦): « ينبغي للمعبِّر أن يكون صاحب دينٍ وحلمٍ، وصيانةٍ، وكتمانٍ على النّاس عوراتهم، ويستمع السّؤال بأجمعه من السائل، ويميّز بين الشريف والوضيع، ويتمهّل ».

وفي « التعبير » (١/ ١٠٦ عالم الكتب) للقادري ـ رحمه الله ـ: « ينبغي للعابر أن يستغرق السؤال بأجمعه من السائل ويتأنّى فيه».

وقال أيضاً (١/ ١١٠): « ولا تعجل بتفسير الرؤيا، حتى تعرف وجهها، ومخرجها، ومقدارها، أو تسأل صاحبها عن نفسه، وحاله، وقومه، وصناعته، ومعيشته، ولا تدع شيئاً يستدلُّ به على علم مسألته إلاّ فعلته، فإن لم يصحّ لك؛ فاجتهد برأيك »[1].

وفي « جامع التفاسير » (ص: ١٤) للأحسائي: « ويدقّق النظر في استنباط تأويلها، فإن كانت الرُّؤيا غريبةً ونادرةً، لم يقع مثلها، فلا يتجاسر، ولا يبادر في تعبيرها، بل يتوقّف فيها حتى تظهر عاقبتها».

❁ الأدب الرابع: مراعاة اختلاف هيئات النَّاس في التَّعبير.

إذ النَّاس أقسامٌ منهم من لا يرى رؤيا أصلاً، وسبب ذلك بلادة نفسه، ومنهم من يرى وينسى، ومنهم من يرى ولا يفهم، ومنهم من يرى ويفهم، ومنهم من يتمنّى رؤية ميته فلا يراه إلاّ نادراً، فإن رآه لم يخبره عن حاله، وإن سأله لم يجبه لاشتغال الميت عنه بما هو فيه من خيرٍ أو شرٍّ، ومنهم من يراه ويخبره، فمن أحبَّ أن يراه يكثر الصدقة عنه، والقراءة له، ويواصله بالدعاء، والترحّم، فيراه ويخبره[٢].

ولهذا يتناسب التَّعبير مع أحوال النَّاس، كلٌّ بحسب عمره، أو صنعته، أو عُرفه، أو بلده، أو زمنه، أو فهمه، أو غير ذلك مما يجدر بالمعبِّر اعتباره، ومراعاته حين التأويل.

(70)

❁ الأدب الخامس: السّتر على حال الرّائي.

وذلك إذا ظهر له من الرُّؤيا ما يدلُّ على عورة، أو سوءة فيه، أو في عياله، ومثله إذا علم ذلك من الرّائي حين قصّ الرّؤيا، وهذا من جملة الآداب الشرعيّة عموماً، وفي مثل هذه الصورة يكون بلا شك أولى وأحرى.

قال ابن قتيبة في « تعبير الرؤيا » (ص:١٩٢ - بتحقيقنا): « وإن كانت الرُّؤيا على فاحشة أو قبح، سترت ذلك عليه، ورؤيت عنه بأحسن ما تقدر عليه من اللّفظ، أو أسررته إلى صاحبها» .

❁ الأدب السادس: أن لا يعجب المعبِّرُ بنفسه.

بل يحمد الله على الإصابة، ويشكره عليتوفيقه، وأنّه جعله سبباً لمنفعة إخوانه في هذا العلم الشريف.

قال القادري في « تعبير الرؤيا » (١٠٦/١): « وينبغي للمعبِّر أن...يترك التفاخر، فإنّ الفخر يوقعه في المهلكة، لأنّ فرعون لمّا افتخر بالأنهار وقال: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزخرف:٥١] أهلكه الله بالمفاخرة ؛ فأغرقه » .

وقال الأحسائيُّ في « جامع التفاسير » (ص: ١٣): « وإذا أصاب في تعبيره فلا يعجب بنفسه، بل يشكر الله الذي هداه ووفقه لإصابة الصواب في تعبيره »[٢].

❁ الأدب السابع: اعتبار ضمير الرَّائي.

أي: ما وقع في قلبه أنّه هو المراد بالرُّؤيا، فإنّ هذا هو المعتبر في عناصر الرُّؤيا دون

قال العلامة ابن قتيبة في «تعبير الرؤيا» (ص:١٩٣- بتحقيقنا): «وإن اشتبه عليك الأمر سألت الرّجل عن ضميره في سفره - إن كان رأى السّفر - وفي صلاته - إن كان رأى الصلاة - وفي صيده - إن كان رأى الصيد - ثمّ قضيت بالضّمير، وإن لم يكن هناك ضميرٌ؛ أخذتَ بالأسماء»[1].

وأحسن منه قول القادري في «التعبير في الرؤيا» (١/١٠٨-١٠٩): «وإذا أتاك من المسائل ما لا تعرف وجه تصرفها في التأويل، فسل عند ذلك عن ضمير صاحب الرؤيا، فإن رأى أنه يصلّي، فسله عن ضميره: أفريضة كانت صلاته أم نافلة؟ فإن كانت فريضة فإنه يؤدّي دَيناً، أو يردّ وديعة، أو يشهد شهادة، أو يردّ أمانة؛ أو يرى أنه سافر سفراً، فسله عن ضميره: أين نوى وتوجه؟ فإن نوى حجاً واجباً عليه، فإنّه يؤدّي فريضة من فرائض الله أو شهادة، مع كدٍّ، وتعب، وثواب، ورفعة درجة، وصيت، وبناء، وذكر.

❁ الأدب الثامن: الاهتمام بكلِّ عناصر الرُّؤيا المعبّرة دون غيرها.

وذلك بأن يطرح الأضغاث، والأخلاط، مما لا تعبير له، فيلغيها من أجزاء وعناصر الرؤيا، ثمّ يتأمّل فيما بقي من أجزائها ويؤوّلها.

قال ابن قتيبة في «تعبير الرُّؤيا» (ص:١٩٣-١٩٤ - بتحقيقنا): «وتَفَهَّمْ كلامَ صاحب الرُّؤيا وتَبَيَّنْهُ، ثمّ اعْرِضْه على الأُصول، فإنْ رأيته كلاماً صحيحاً يدلُّ على معانٍ مستقيمةٍ، يُشبهُ بعضُها بعضاً، عَبَّرْتَ الرُّؤيا بعد مسألتك اللهَ أن يوفّقك للصَّواب، وإنْ وجدتَ الرُّؤيا تحتمل معنَيَيْن متضادَّين، نظرتَ: أيُّهما أولى بألفاظها، وأقربُ من أصولها، فحملتَها عليه، فإنْ رأيتَ الأصولَ صحيحةً، وفي خلالها أمورٌ لا تنتظم به، ألقيتَ حَشوَها، وقصدْتَ لصحيح ما يصلح منها؛ وإنْ رأيتَ الرُّؤيا كلَّها مختلطةً، لا تلتئمُ على الأُصول، علمتَ أنّها من الأضغاث، فأرْجَأْتَها».

❁ الأدب التاسع: أن يكون التَّعبير في الفجر.

ذلك لصفاء الذهن، وحضور الفهم عن الرَّائي، وعدم انشغال الذهن بمشاغل الدنيا.

ولهذا كان نبيّنا ﷺ يفسّر الرُّؤى، أو يسأل عنها؛ ليفسّرها، بعد صلاة الفجر، كما سبق في (القاعدة الأولى).

وقد بوّب البخاريُّ على هذا فقال (١٤/ ٤٩٠): «باب تعبير الرُّؤيا بعد صلاة الصبح».

قال الحافظ في «شرحه على البخاري» (١٤/ ٤٩٠): «وفي هذه الأحاديث الاهتمام بأمر الرؤيا، بالسؤال عنها، وفضل تعبيرها، واستحباب ذلك بعد صلاة الصبح، لأنّه الوقت الذي يكون فيه البال مجتمعاً»[1].

ولّما عدّد الواعظ في «تفسير الأحلام» (ص: ١٨) آداب المعبّر قال:

«...وأن تكون عبارة الرؤيا بالغدوات، فهو أحسن لحضور فهم عابرها، وتذكار رائيها، لأنّ الفهم أوجد ما يكون عند الغدوات، من قبل افتراقه في همومه ومطالبه».

❁ الأدب العاشر: أن يُستقبل الرّائي للرُّؤيا بقوله: خيراً.

وهذا الأدب نصّص عليه أكثر من صنّف في التعبير، وعبارة أكثرهم: «ينبغي للمعبر إذا قُصّت عليه الرُّؤيا، أن يقول: خيراً رأيت، وخيراً نلقاه، وشرّاً نتوقّاه، خيرٌ لنا، وشرٌّ لأعدائنا، الحمد لله ربِّ العالمين، اقصص رؤياك»، ونحوه وما في معناه.

وأصل هذا الأدب: حديثٌ مرفوعٌ للنبيِّ ﷺ من طريق سليمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله الجهني، عن عمِّه أبي مشجعة بن ربعي، عن ابن زمل ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قصَّ على النبيِّ ﷺ رؤيا، فقال له: «خيراً تلقاه، وشرّاً توقاه، خيرٌ لنا، وشرٌّ لأعدائنا، والحمد لله ربِّ العالمين»، ثمّ قال: «اقصص رؤياك»، وذكر حديثاً طويلاً.

أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٢٩-٣٣٠)، والطبرانيّ ـ كما في «المجمع» (٧/ ١٨٣-١٨٤) ـ والبيهقيُّ في «الدلائل» (٧/ ٣٦-٣٧)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣٩٠٨و٤١٦٦و٧٠٧٨)، وابن السُّني في «عمل اليوم والليلة» (١٤٢و٧٧٤)، والبيهقيّ في «الشعب» (٤/ ١٨٧-١٨٨رقم ٤٧٦)، والحكيم في «نوادر الأصول» (١١٦)، وابن منده في «معرفة الصَّحابة» ـ كما في «أسد الغابة» (٥/ ٣٣٩) ـ والشجري في «الأمالي» (١/ ٢٤٩-٢٥٠)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٥/ ٣٣٩)، كلّهم من طريق سليمان بن عطاء به.

«وسليمان بن عطاء يروي عن مسلمة بن عبد الله، عن عمّه أشياء موضوعة لا تشبه حديث الثقات»، قاله ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٣٠)، ولهذا ضعّفه به البيهقي في «الدلائل» وغيره.

قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٨٤): «فيه سليمان بن عطاء القرشي، وهو ضعيفٌ».

فالخبر واهٍ بمرّة، ولا يعتمد عليه لإثبات هذا الأدب المذكور، ولكن قول المعبر: « خيراً رأيت »، ورد في بعض الأحاديث الصحيحة، وهو حديث أم الفضل ـ رضي الله عنها ـ قالت: « رأيت كأنّ عضواً من أعضاء رسول الله ﷺ في بيتي، فجزعتُ من ذلك، فذكرتُه للرسول ﷺ، فقال: « خيراً رأيت تلد فاطمة غلاماً، فتكفلينه بلبن ابنك، قُثم » قالت: فولَدتْ حسناً، فأُعطيته فأرضعتُه، حتى تحرّك »[1].

وهذا صريح في قول المعبِّر: خيراً، أو خيراً رأيت، أو رأيت خيراً.

ومثله: ما أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤٥٢، ٤٥٣)، وابن أبي شيبة (١١/ ٦٦ـ٦٧)، ومسلم (٢٤٨٤)، وابن ماجه (٣٩٢٠)، والحاكم (٣/ ٤١٤)، والبيهقي في « الدلائل » (٦/ ٤٦٢)، وغيرهم في خبر الرُّؤيا التي رآها عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ لمّا سمعها قال: « رأيت خيراً ».

والحديث أصله في « صحيح البخاري » (٣٨١٣ و٧٠١٤ و٧١٠١).

والمقصود بهذا: أنّ قول المعبِّر خيراً رأيت، مما ثبت عنه ﷺ، فهو من الآداب المرعية عند تعبير الرّؤيا، ولهذا كان سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ لا يعبِّر رؤيا قصّت عليه حتى يقول: « خيراً رأيت »[2].

❁ الأدب الحادي عشر: عدم التكلّف في تعبير الرُّؤيا.

إنَّ من الرؤى ما يكون ظاهراً حالها، لا تحتاجُ إلى كُلفةٍ في تعبيرها، ومعرفة المراد منها، بل يظهر ذلك للمعبّر من أوّل سماعه للرّؤيا.

فعليه ـ والحالة هذه ـ أن يُبادر لتعبيرها، دون تكلّفٍ أو تنطُّعٍ.

« ولهذا قسّم علماء التعبير الرّؤيا إلى نوعين اثنين:

أحدهما: ما هو ظاهرٌ لا يحتاج إلى تأويل.

والثاني: ما هو ضربٌ من الأمثال للنائم، وهذا النّوع هو الأكثر والغالب على الرّؤيا، وهو الذي يُحتاج فيه إلى التأويل »[1].

قال أبو سعيد الواعظ في « كتاب تفسير الأحلام » (ص: ٢٠): « واعلم أن الرُّؤيا الصّادقة قسمان:

قسمٌ مفسَّرٌ ظاهرٌ لا يحتاج إلى تعبيرٍ ولا تفسير.

وقسمٌ مَكنيٌّ مُضمَرٌ، تودعُ فيه الحكمة، والأنباء في جواهر مركباته ».

وقال ابن عبد البرّ ـ رحمه الله ـ في « التمهيد » (١/ ٢٨٥): « بعض الرؤى لها التأويل الحسن، وربّما أغنى بعضها عن التأويل» .

وقال ابن العربي المالكي في « أحكام القرآن » (٣/ ١٠٧٤): « بعض الرّؤى يظهر معناه أولاً، وبعضها لا يظهر إلاّ بعد الفكر» .

وأيضاً قال أهل التعبير، وأرباب هذا الشأن: « من رأى في المنام أنّه يقصُّ الرُّؤيا على معبّر، فعبَّرها له، فهو تعبيرها موافقاً للحكمة الجارية على ألسنة. . . »[٢].

ومن ذلك قول ابن رشد ـ رحمه الله ـ في « البيان والتحصيل » (١٨/ ٥٨٩-٥٩٠): « وقد يكون من الرؤيا ما يخرج على ما يراه الرائي دون تأويل ولا تعبير، مِن ذلك ما أخبر به النبيّ ﷺ مِن أنه رأى عائشة رضي الله عنها في سرقة من حرير. جاء عن عائشة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « أُريتُكِ في المنام مرتين، إذا رجلٌ يحملك في سرقةِ حريرٍ، ويقولُ: هذه امرأتك فاكشف عنها، فإذا هي أنتِ، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه» .

وبهذا الأدب يظهر لنا أنَّ المعبر إمّا أن يتبيّن له وجه الرؤيا في أوّل الأمر؛ لصراحة ألفاظها، ووضوح عناصرها، وسهولة تنْزيلها على الأصول المعتبرة في هذا الفنّ، وإمّا أن يكون فيها غموضٌ، وإبهام لا يظهر مع التأمل، والتدبّر في جزئياتها، وموافقتها لحال صاحبها وسؤاله عن أحواله، وهذا النّوع هو الذي يتباين فيه أهل التعبير؛ حتى يظهر المتقن منهم ومن هو دونه.

وعلى المعبِّر في هذه الحالة أن يتقي الله في تعبيره، فإن لم يظهر له في توجيه الرؤيا من الوجوه ما يناسب الأصول، فلا يحلُّ له أن يفتي صاحبها بتعبيرٍ لا يناسبه، ولا يناسب عناصر الرؤيا.

وعليه أن يرجئ التعبير إلى وقتٍ آخر ،أو يحيله على غيره، أو يجتهد فيها طالباً من الله العون والسداد، مستعيناً بأخبار السلف، متأمّلاً في تعابيرهم، وأساليبهم، لعلّه يعرف وجهها ومخرجها، وإلاّ قال: لا أعلم لها تفسيراً، وفوق كلّ ذي علمٍ عليم. وبهذا تبرأ ذمته من تبعة هذا العلم كما سبق مراراً، والله هو الواقي والهادي.

(80)

الطبقة الأولى:

وهم الذين أُكرموا بالملكة الخاصة، والنّور الإلهي، الذي يؤيّد شفافيتهم، وصفاء نفوسهم، وأرواحهم، حتى أدركوا درجةً وجزءاً من النبوّة، وهؤلاء هم أعلى طبقات المعبّرين، كأبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما، وكسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين من التّابعين ومن بعدهم، كعلي بن أبي طالب القيرواني، والشّهاب العابر،

وغيرهم من أهل العلم قديماً وحديثاً[1].

وهذه الطَّبقة من المعبِّرين، قلّما يخطئون في تعبير الرُّؤى والأحلام، فصوابهم أكثرُ بكثيرٍ من خطئهم، بل لعلّهم لا يخطئون إلا نادراً.

وإذا علم العبد رجلاً أكرمه الله بهذا العلم، وأدرك فيه منزلةً كبرى، فلا يعدل به أحداً حين قصّ الرؤى، والمنامات، فهم أولى من تُعبر عندهم الرؤى.

والطبقة الثانية:

وهم الذين أدركوا، وحصّلوا أنواعاً من العلوم الشرعيّة، في التفسير، والحديث، واللّغة، والأدب، مع قوّةٍ في الإدراك، وسرعةٍ في البديهة، ومعرفةٍ بأحوال الخلق، ومعايشهم، حتى علت بهم علومهم، لتحليل الكثير من شخصيات النّاس، ونفوسهم.

وهم مع ذلك ممّن أكثروا، وأدمنوا الإطلاع على تعابير السلف، وأساليب المعبّرين من أهل الطّبقة الأولى وغيرهم، حتى استطاعوا أن يوسّعوا عرض النّظائر على النظائر، ويراعوا فنونَ القياس المعتبرةِ في هذا الفنّ، حتى تحصّلوا على نوعِ ملكةٍ خاصّةٍ، تعينهم في كثيرٍ من الأحايين على معرفة المراد بالرُّؤيا.

وهذا الصنّف بالذات، هو المراد بكلام كثيرٍ من أهل العلم ممّن تحدثوا عن علم التعبير المكتسب، وما لم يحصّل العالم، أو طالب العلم هذه الأصول، ويتفطّن لمسألةِ النّظائر، والأقيسةِ، مع مراعاة التّأويل بالأمثال، والأشعار، والقلب، والضدّ، وغيرها؛ فإنه لا ينبغي له أن ينتهض بنفسه للتّعبير، حتى يستطيع مع الأيام، وإدمان الطّلب، أن يشتق المعاني من الرُّؤى، ويستخرج المراد منها، بناءً على ما حصّله من العلوم، مع مراعاةِ لحال الرائي، واختلاف الحال كما سبق في أوّل الكلام.

ولهذا قال العلاّمة ابن مفلح ـ رحمه الله ـ في «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٢٧): «لا يُفسِّر الرُّؤيا مَنْ لا علم له فيها».

وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٤/ ٤٧١): «مَنْ لم يتدرب على علم الرُّؤيا، والتَّعبير فلا يُشرع له أن يعبِّر الرُّؤيا»[1].

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: «لا يُعبِّر الرُّؤيا إلاّ من هو من أهل العلم بتأويلها»[2].

وأمثال هذا الكلام من أهل العلم يدلُّ على اعتبارهم لمسألة التدرُّب على الرُّؤيا، ومحاولة التَّحصيل المذكورة آنفاً، حتى تمتلأ نفسه بتعابير السَّلفَ، وكلامِ أهلِ العلم في ذلك، فإنّه يكون أهلاً للتَّعبير. على أنَّ هذا النَّوع من المعبِّرين، يكونُ اعتمادُه على علمه في النَّظائر، والأقيسة، للأمثال المضروبة في هذه المنامات، ولذلك؛ فإنَّ خطأه في هذا أكثر من خطأ الصِّنف الأوّل الذي يؤيَّد بالنّور الإلهي الكريم.

وكثيراً ما يتحدّث ابن القيّم ـ رحمه الله ـ عن هؤلاء، وطريقة انتزاعهم للمعاني

الطَّبقةُ الثالثة:

وهم الذين نصبوا أنفسهم لتعبير الأحلام معتمدين على (القواميس)! التي وضعها أهل العلم قديماً وحديثاً، وهؤلاء لا علم لهم بشيء من هذه الأصول،

أنواع الدِّلالات المعتبرةِ في التَّأويل عند المعبِّرين

ولنسرد الآن شيئاً من وجوه الدلالات المعتبرةِ عند أهل العلم من المعبرين وغيرهم، لمعرفة بعض الأصول الموضوعة في كتب المعبرين، إذ الرؤيا كما سلف ـ مراراً ـ لا تعبّر من علمٍ واحدٍ، بل من علومٍ، ومعارف شتّى.

وهذه الوجوه بمثابة المفتاح لعلم التعبير يسترشد بها العابر، ويستنير بها سيما إن كان في أوّل تعلّمه وتدربه على هذا الفنّ.

ولهذا قال ابن قتيبة في «عبارة الرؤيا» (ص: ٩٠ بتحقيقنا) وهو يعدّد هذه الأصول: «قال أبو محمد: ولمّا كانتْ الرُّؤيا ـ على ما أعلمتُك ـ من اختلاف مذاهبها، وانصرافها عن أصولها، بالزِّيادة الدَّاخلة، والكلمة المعترضة، وانتقالها عن سبيل الخير إلى سبيل الشَّرِّ، باختلاف الهيآت، واختلاف الأزمان، والأوقات، وأنّ تأويلها قد يكون مرّةً من لفظ الاسم، ومرّةً من معناه، ومرّةً من ضدّه، ومرّةً من كتاب الله، ومرّةً من الحديث، ومرّةً من البيت السائر والمثل المشهور، احتَجْتُ إلى أن أذكر قبل ذِكْر الأصول أمثلةً في التَّأويل؛ لأُرشدَك بها إلى السَّبيل».

وجعلها الأُبِّيُّ في «شرحه على مسلم» (٧/ ٥١٠) أربعة أقسامٍ وطرق، فقال ـ رحمه الله ـ: «قال علماءُ التَّعبير: وطرق التَّعبير أربعةٌ: الاشتقاق كما تقدَّم. والثانية: ما يُعبَّر بمثالِهِ ويُفسَّرُ بشكلِهِ ودلائِلِهِ، كدلالةِ معلِّم الكُتَّاب على القاضي، والسُّلطان، وصاحب السِّجن، ورئيس السَّفينة، وعلى الوصي والولد. والثالثة: ما يفسِّرُهُ المعنى المقصودُ من ذلك الشيء المرئي، كدِلالة فِعلِ السَّفر على السَّفر، وفعل السُّوقِ على المعيشة، وفعل الدَّار على الزوجة والجارية. والرَّابعة: التَّعبير بما تقدَّم له ذكرٌ في القرآن، والسُّنَّة، أو الشِّعر، أو كلام العرب، وأمثالها، أو كلام النَّاس وأمثالهم، أو خبرٍ معروفٍ، أو كلمة حِكميةٍ».

وهذه الوجوه من الدِّلالات التي ذكرها البغويُّ، والأُبِّيُّ ـ رحمهما الله ـ وغيرهما، من أكثر ما اعتمده المعبِّرون في الكتب، وقد ضربوا على ذلك الأمثلة الكثيرة.

التعبير بدلالة من جهة القرآن الكريم[1]

قال المعبّرون: الحبلُ يعبر بالعهد؛ لقوله ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

والسّفينةُ تعبَّر بالنجاة؛ لقوله ﷻ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت:١٥].

والخشب يعبَّر بالنّفاق؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤].

والنّظر للأرض: امرأةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٣][1].

والحطبُ نفاقٌ؛ لقوله تعالى عن المنافقين: ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون:٤][2].

والسِّكينُ: حُجّةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ [يوسف:٣١][3].

والسَّريرُ؛ إن كان الذي رآه سلطاناً، ضعف عنه سلطانه، ثمّ يثبت بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص:٣٤][4].

ونقل القادريُّ عن ابن سيرين ـ رحمه الله ـ وقد جاء له رجلٌ فقال: رأيت كأني فوق سُلّم، قال: «أنت تتسمّع على النّاس؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ [الطور:٣٨]»[5].

قالوا: ومن رأى في المنام طوقاً في عنقه، فإنّه بخيلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران:١٨٠][6].

ومن رأى أنّ بيده مفاتيح؛ فإنّه سيصيب سلطاناً عظيماً؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [الشورى:١٢].

فإن رأى أنّه أخذ مفتاحاً، فإنّه يُصيب كنزاً، ومالاً من نبات الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ ﴾ [القصص:٧٦][7].

قال: «والجنون في المنام دالٌّ على أكل الرِّبا؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقال ـ رحمه الله ـ (١/ ٢٤٣): «الحمار يدلُّ في النوم على السَّفر، أو العلم؛ لقوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة:٥]، وربّما دلّ على المعيشة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وربّما دلَّ على العالم المحصِّل أو اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ [الجمعة:٥]؛ قال: وركوبها في المنام يعني الزينة، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل:٨]... وربّما دلّ صوتها على الشرّ والأنكاد، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان:١٩].

وقال أيضاً (١/ ٢٧٢-٢٧٣): «الحيّةُ في المنام تعبّر بأشياء كثيرة، فهي: عدوٌّ، ودولةٌ، وحياةٌ، وسيلٌ، وولدٌ، وامرأةٌ، فمن نازع حيّةً وهي تريدُ أن تنهشه، فإنّه ينازعُ عدوّاً، لقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الأعراف:٢٤]» اهـ.

ومن رأى أنه يلبس الثياب البيضاء الطّاهرة؛ فإنه يدلُّ على إصلاح دينه، وحُسن حاله، وذهاب همومه؛ لقوله ﷻ: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر:٤].

ويقولون: من رأى في المنام مطراً فهو في غمٍّ؛ لأنه ليس في كتاب الله تعالى فرجٌ في المطر مثل قوله: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ [النمل:٥٨] وقوله: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ﴾ [الحجر:٧٤]، وإذا لم يُسَمِّ مطراً فهو فرج كما قال: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ [ق:٩][1].

وقالوا: من رأى البرق في الظلمة، فإنّه مطرٌ وخصب؛ لقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة:١٩].

ومن رآه في غير الظُّلمة فهو خوفٌ مع منفعةٍ؛ لقوله: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢٠][2].

والنّارُ: حربٌ لا تتمُّ؛ لقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ [المائدة:٦٤][3].

وأمثلةُ هذا في كتاب الدميري وغيره؛ كثيرةٌ جداً؛ ومن ذلك قول ابن قتيبة في «عبارة الرؤيا» (ص: ١٠٦-١٠٧ بتحقيقنا):

«فأمّا التأويل بالقرآن: فكالبيض: يعبَّر بالنساء؛ لقوله ﷻ: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات:٤٩]. وكالخشب، يعبَّر بالنفاق؛ بقول الله ﷻ: ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون:٤]. وكالحجارة: تعبَّر بالقسوة؛ بقول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤]. وكالسفينة: تعبَّر بالنجاة؛ لأنّ الله تعالى نجّى بها نوحاً عليه السلام ومن كان معه. وكالماء: يعبَّر في بعض الأحوال بالفتنة؛ لقول الله تعالى: ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

﴿التَّعبير بدلالة من جهة السُّنَّة﴾

يقول ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ في «عبارة الرؤيا» (ص: ١٠٩-١١٠ بتحقيقنا):

«وأمّا التّأويل بالحديث: فالغراب: هو الفاسقُ؛ لأنّ النبيّ ﷺ «سمّاه فاسقاً».

والفأرةُ: هي المرأة الفاسقة؛ لأنّه سمّاها: «فويسقة»[٢].

والضِّلَعُ: هي المرأة: «لأنّ المرأة خلقت من ضلعٍ أعوج»[٣].

والقارورة: هي المرأة؛ لقوله لأنجشة الحادي لما حَدَا بالظعن: «إيّاك والقوارير»[1].

قال ذو الرّمة:

ودَاعٍ دَعاني للنَّدَى وزُجَاجَةٍ ** تَحسَّيْتُها لم تَقْنَ ماءً ولا خمراً[2]

الدَّاعي ها هنا: العود. والزُّجَاجة: فمُ امرأة.

وأُسْكُفَّةُ الباب: امرأة؛ لقول إبراهيم لإسماعيل عليهما السلام: «غيِّر أُسْكُفَّة بابك»[3]، يعني: امرأتك».

يقول البغويُّ ـ رحمه الله ـ في «شرح السُّنَّة» (١٢/ ٢٢١-٢٢٢): «وأما التأويل بدلالة الحديث، كالغراب يعبَّر بالرجل الفاسق لأنَّ النبيّ ﷺ سماها فاسقاً، والفأرة تُعبَّر بالمرأة الفاسقة؛ لأنّ النبيّ ﷺ سماها فويسقة، والضلع يعبَّر بالمرأة؛ لقوله ﷺ: «إنَّ المرأة خُلقتْ من ضِلَعٍ أعوج»[4]، والقوارير بالنِّساء؛ لقوله ﷺ: «يا أنجشة رويدك سوقاً بالقوارير...»[5] أهـ.

والبعير في المنام ربما دلّ على الشيطان؛ لخبر: «على ظهر كلّ بعير شيطان»[4].

ومن رأى السِّجنَ في منامه، فإنْ كان مريضاً طال مرضه، ورجيت إفاقته وقيامه إلى الدُّنيا التي هي سجنه؛ لحديث: «الدُّنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[5]. ونحوها من أوجه الاستدلال والاستنباط، وقد مضى من كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ شطراً صالحاً منها.

من عيوب هذه الطريقة

على أنّ من عيوب هذه الطريقة في كثيرٍ من كتب التّعبير، اعتمادهم على بعض الأحاديث الواهية التي تصل أحياناً إلى حدّ الوضع والاختلاق، وهم يبنون عليها

﴿ التَّعبير بدلالة من اشتقاق اللُّغة ومعاني الأسماء ﴾

وهذا النوع من الدّلالات مشهورٌ في كتب المعبِّرين، وسبق نقله عن الأُبيّ في «شرحه على مسلم» (٧/ ٥١٠)، وتراهم يستندون إليه في تعبير الرؤى، ومعرفة المراد منها، وقد ذكره ابن العربي في «عارضة الأحوذي» (٩/ ١٥٢-١٥٣)، والبغويُّ في «شرح السنّة» (١٢/ ٢٢١-٢٢٢)، وغيرهم.

وذكره ابن عبد البرّ ـ رحمه الله ـ في «التمهيد» (٢٤/ ٤٩)، فقال:

«إنّ تأويل المنام قد يخرج على اشتقاق اللّفظ، وقُرب المعنى...» أهـ.

وذكره ابن قتيبة من قبله، فقال في «عبارة الرؤيا» (ص: ١٠١-١٠٢ بتحقيقنا): «فأمّا التّأويل بالأسماء؛ فتحمله على ظاهر اللّفظ، كرجُلٍ يُسمّى الفضل، تتأوّله إفضالاً، ورجل يسمّى راشداً تتأوّله: رُشداً، أو سالماً تتأوّله: سلامة؛ وأشباهُ هذا كثير»[1].

قال: وأخبرنا محمد بن عبد العزيز، قال: أخبرنا محمد بن كثير وأبو سلمة، قالا: أخبرنا حمّاد، عن ثابت، عن أنس، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«رأيتُ اللّيلة كأنّي في دار عقبة بن رافع، فأُتِينا برُطَب ابن طابٍ، فأوّلتُ: الرِّفعة لنا في الدُّنيا والآخرة، وأنّ ديننا قد طاب»[2].

فأخذ من رافع الرفعة، وأخذ طيبَ الدِّين من رُطَب ابن طاب.

وقال المناويُّ في «فيض القدير» (٤/ ٦٥): «فمن أمثلة التَّعبير بحسب الاشتقاق: أنّ رجلاً رأى أنه يأكل سفرجلاً، فقال له المعبِّر: تسافر سفراً عظيماً؛ لأن أوّل جزء السّفرجل (سفر)، ورأى آخر: أنَّ رجلاً أعطاه غصن سوسن، فقال: يصيبك من المعطي سوء سنة، لأن السّوء يدل على الشِّدَّة، والسَّنة اسم للعام التَّام، لكن التَّعبير بحسب الاشتقاق للألفاظ العربية إنما هو للعرب، وغيرهم إنما ينظر إلى اللفظ في لغتهم» أهـ.

وقال ابن شاهين ـ رحمه الله ـ في «الإشارات» (ص: ٧٤٣): «السَّوْسَن يدل على وجهين: لأهل الثَّناء: صلاح وحسن، ولأهل الفساد: سوء، حملاً على ظاهر اسمه، لأنَّ شطره الأول سوء، وأنشدوا في المعنى[٢]:

سَوْسَنـة أعطيتُها لـي ومـا ** كنتُ بإعطائي لها محسنه
أوّلهـا سـوءٌ، وناهيـكَ مـا ** بقي من الاسم، فسُوءُ سَنَه».

«وعليه فمن رأى رجلاً يسمَّى راشداً، يعبَّر بالرُّشد، وإنْ كان يسمَّى سالماً يعبَّر بالسَّلامة، وسعيداً بالسَّعادة، ونافعاً بالنَّفع، وعُقبة بالعاقبة، ورافعاً بالرِّفعة، وأحمد بالحمد، وصالحاً بالصَّلاح» أهـ[٣].

وتارةً يكون الاشتقاق من بعض الكلمة، كما قال لي إنسان: كأنّه وقع على عيني غمامة بيضاء. فقلت: يقع بعينيك عماءٌ، وربما يكون من بياض، فكان كما قلت. لأنَّ الغمامة بعضها غمّاً، وأسقطنا الباقي.

وربما كان في الكلمة اشتقاقان؛ كفرجية فتقول: فرج من شدّة، وأمر ترجوه، يحصل لك على قدر الفرجية، على ما يليق به.

وتارةً يكون بالتّصحيف؛ كما قال شخص ظاهره رديء: رأيت أنني سرقت رغيفاً، وأكلته في فرد لقمة، حتى كدت أموت. فقلت له: يحصل لك نكدٌ لأجل سرقة، فكان كما قلت » أهـ.

وهذا النّوع من وجوه الدّلالات، له أصلٌ شريفٌ في السُّنّة، وعمل السّلف، وهو حديثُ أنسَ - رضي الله عنه - قال: قال النبيُّ ﷺ: « رأيتُ ذات ليلةٍ فيما يرى النّائم، أنّا في دار عقبة بن رافع، فأُتينا برطب من رطب ابن طاب، فأوّلت الرّفعة لنا في الدُّنيا، والعاقبة لنا في الآخرة، وأنَّ ديننا قد طاب »[1].

وهذا كما ترى نوعٌ من الاشتقاق، بدلالة اللفظ، وقد سبق نقله عن ابن قتيبة قريباً، واعتماده عليه في هذا النوع من التأويل، ولذلك قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «زاد المعاد» (٢ / ٣٣٦-٣٣٧): «وكان ﷺ يأخذ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة، كما رأى أنه وأصحابه في دار عقبة بن رافع. ثم ذكر الحديث».

وقال ملاّ علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (٨/ ٤٣٥ علمية): «وحاصله أنه ﷺ كان يُحبُّ الفأل الحسن ويكره التطير، وإلاّ فالأسماء والألفاظ ذوات جهاتٍ من المعاني المختلفة، كما أخذ العاقبة من لفظ: عقبة، والرِّفعة من: رافع، وجملة الأمر أنّ مسلك الرؤيا دقيقٌ يحتاج إلى نوعِ توفيقٍ».

ومن ذلك ما أورده ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٣٣) عن حنبل ـ رحمه الله ـ قال: «سمعت أبا عبد الله ـ أي الإمام أحمد بن حنبل ـ يقول: رأيت علي بن عاصم في المنام؛ قبل أن يؤذن لي بالانحدار ـ يعني من العسكر أيام المتوكل ـ بليلتين، فسألته عن شيء نسيته، فقال أبو عبد الله: فأوّلته: علي: علوٌّ، وعاصم: عصمة الله،

ومن ذلك ما أورده ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٣٣) عن حنبل - رحمه الله - قال: «سمعت أبا عبد الله - أي الإمام أحمد بن حنبل - يقول: رأيت علي بن عاصم في المنام؛ قبل أن يؤذن لي بالانحدار - يعني من العسكر أيام المتوكل - بليلتين، فسألته عن شيء نسيته، فقال أبو عبد الله: فأوّلته: علي: علوّ، وعاصم: عصمة الله،

وقد يظهر للمعبر ممّن يرى اعتماد هذه الرُّؤيا، وجوهاً أخرى للاشتقاق، كمثل أن يعكس اللّفظ المذكور، فينتج عنده المراد منها؛ ولذلك قالوا: «إنَّ التَّوديع محبوبٌ في التَّأويل، وهو يدلُّ على مراجعة المطلقة، ومصالحة الشَّريك، وربح التَّاجر، وعود الولاية إلى الوالي، وبرء المريض، لأنه من الوداع. وَلَفْظُهُ يتضمَّن الوداع، وهو الدَّعة والرَّاحة، وأيضاً فإنَّ الوداع إذا قُلِبَ صار عادوا، كما قيل:

إذا رأيت الوداع فافرح ** ولا يهمّك البعادُ

وانتظر العودَ عن قريبٍ ** فإنَّ قلْبَ الوداع عادوا »[1].

وقال الشّهاب العابر في «البدر المنير» (ص: ٢١٩): «رأى إنسانٌ كأنّه وضع على عينيه كوكبين وهو ينظر، قلت: يطلع على عينيك بياضٌ. فوقع ذلك، ودليله أنّ البياض في العين يسمّى كوكباً في اللّغة» اهـ.

وقال (ص: ١٦٥): «قال لي إنسانٌ: رأيت كأنّي أودع أقواماً، وهم الآن غُيَّاب، قلت له: أبشر قد قرب مجيئهم، لأنّ عكس الوداع عادوا، فذكر أنهم وصلوا عقب ما ذكرت» اهـ.

التَّأويل بدلالة من أشعار النَّاس

وهذا النّوع من الأساليب المعتبرة عند المعبِّرين للأحلام، وقد ذكره ابن قتيبة[1] وغيره، كابن عبد البرّ، والبغويّ، وابن العربي، وابن القيم، وابن حجر، وغيرهم.

فترى المعبِّرين يستأنسوا ببعض الأشعار المشهورة؛ لاستخراج معاني بعض الرؤى والأحلام، ومن ذلك قولهم: مَن رأى في منامه السَّفر، فإنّه يؤوَّلُ لأهل الصَّلاح بالغنيمة، لقول الشافعي ـ رحمه الله ـ:

« كثرة المكث في المنازل ذلٌّ ** اغتنمْ سفرةً ولا تتانس
أما ترى الماء في الخليج زلالاً ** فإذا طال مكثه يتدنّس »[2].

وقالوا: « والنَّوم في المنام محمودٌ لصاحب الحظِّ والسَّعادة، لقول الشَّاعر:

إذا السَّعادة لاحَظَتْكَ عيونُها ** نَمْ، فالمخاوف كلُّهن أمانُ

والتَّهاون في المنام لا خيرَ فيه؛ لقول الشَّاعر:

ومَنْ تهاونَ في مصالح نفسِهِ ** عَتَتْ عليه ثعالبٌ وفهودُ

والذئب يؤوّل بالصَّديق المداهن؛ لقول الشَّاعر:

واحذره يوماً أن تراه باسماً ** فالذِّئبُ يُبْدِي نابَه ويعطبُ

والدُّخول في الدَّار أمنٌ من كلِّ وجهٍ؛ لقول الشَّاعر:

هـذه الـدار أضـاءت بهجـةً ** كُتِـب السَّعدُ علـى أبوابهـا

﴿التأويل بدلالة من الأمثال السائرة﴾

يقول ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ في «عبارة الرؤيا» (ص:١١١-١١٥ بتحقيقنا):

«وأمّا التّأويل بالمثل السّائر، واللّفظ المبذول؛ كقولهم في الصّائغ: إنّه رجلٌ كذوبٌ؛ لما جرى على ألسنة النّاس من قولهم: (فلانٌ يصوغُ الأحاديثَ)، إذا كان يضعها.

وسمع أبو هريرة قوماً يقولون: خرج الدّجال، فقال: «كذبة كذبها الصّوّاغون»[٣].

وأيضاً قال البغويُّ ـ رحمه الله ـ في «شرح السُّنَّة» (١٢/ ٢٢٢): «والتَّأويل بالأمثال: كالصَّائغ يعبَّر بالكذَّاب؛ لقولهم: (أكذب الناس الصَّوَّاغون)، وحَفْرُ الحُفْرة يعبَّر بالمكر؛ لقولهم: (مَنْ حَفَر حُفرةً وقع فيها)، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر:٤٣]، والحاطب يعبَّر بالنَّمَّام؛ لقولهم لمن وشى: أنَّه يحطب عليه، وفسَّروا قوله ﷻ: ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ [المسد:٤]، بالنَّميمة، ويعبَّر طول اليد بصنائع المعروف، لقولهم: (فلان أطول يداً من فلان). ويعبَّر الرمي بالحجارة وبالسهم بالقذف لقولهم:(رمى فلاناً بفاحشة)، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ [النور:٤].

ويعبَّر غسل اليد باليأس عما يأمل، ولهم: (غسلتُ يدي عنك)» اهـ.

وقال ابن العربي ـ رحمه الله ـ في «العارضة» (٩/ ١٥٢): «تفسيرُ الرُّؤيا لا يُستمدُّ من بحرٍ واحدٍ، بل أصله الكتابُ والسُّنَّة، وأمثال العرب، وأشعارها» اهـ.

ومن ذلك قولُ المعبِّرين: العجلة في المنام ندامةٌ، وأسفٌ، للمَثَل السَّائر: (في التَّأني السلامة، وفي العجلة النَّدامة)[٢].

التأويل بدلالة القلب والضد للكلمات الواردة في الرؤيا

لاقت هذه الصورة قبولاً ورواجاً عند المعبِّرين قديماً وحديثاً، فذكرها الكرماني كما في «الإشارات» (ص: ٥٧٧-٥٧٨ ط الفكر) لابن شاهين، وتبعه على ذلك ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ، فقال في «عبارة الرؤيا» (ص: ١٢٠-١٢٢ بتحقيقنا):

«وأمّا التأويل بالضدّ والمقلوب: فكقولهم في البكاء: إنه فَرَحٌ، ما لم يكن معه رنّةٌ ولا صوتٌ، وفي الفرح والضَّحك: إنه حُزنٌ.

وقولهم في الوالي يرى عهده أتاه: إنّه العزلُ، وإنْ رأى ذلك مَنْ ليس بوالٍ: إنّه ابتداءُ ولايته. وقولهم في الرَّجلين يصطرعان، والصَّبيَّين يقتتلان إذا كانا من جنس واحد: إنَّ المصروعَ هو الغالب، والصَّارع المغلوبُ.

وكقولهم في القَيج[1]: إنه الماسح، وفي الماسح: إنّه القَيج.

وأمّا تعبير الرُّؤيا بالزيادة والنقص: فكقولهم في البكاء: إنه فرح؛ فإن كان معه رنّة: كان مصيبةً. وفي الضَّحِكِ: إنّه حُزنٌ، فإن كان تَبَسُّماً: كان صالحاً.

وكقولهم في الجَوْزِ: إنَّه مالٌ مكنوزٌ؛ فإن سُمِعتْ له قعقعةٌ فهو خصومةٌ.

وفي الدُّهن إن أُخِذَ منه بِقَدْرٍ: إنّه زينةٌ؛ فإنْ سال على الوجه: فهو غمٌّ، وإنْ كثر على الرأس: كان مداهنةً للرئيس. وفي الزعفران: [إنّه] ثناءٌ حسنٌ؛ فإن ظهر له لونٌ في ثوبٍ أو جسدٍ: فهو مرضٌ، أو هَمٌّ. وفي الضَّرب: إنّه كِسوةٌ؛ فإن ضُرِبَ وهو مكتوفٌ: فإنّه كلام سوءٍ يُثْنى عليه لا يُمكِنُهُ دفعُهُ.

وفي من رأى أنَّ له ريشاً وجناحاً فهو له رياشٌ وخيرٌ؛ فإنْ طار بجناحيه سافر سفراً في سلطان بقدرِ ما عَلاَ عَلَى الأرض.

ومن رأى أنّ يده قطعت وهي معه قد أحرزها: إنه يستفيد مالاً أو ولداً؛ فإن رأى أنها فارقته وسقطت: فهي مصيبةٌ له في أخٍ أو ولدٍ.

وفي المريض يرى أنه صحيح يخرج من منْزِله ولا يتكلّم: فإنه يموت؛ فإنْ تكلّم: فإنه يبرأ.

وفي الفأر: أنّه النِّساء ما لم تختلف ألوانها؛ فإنِ اختلفت فكان فيها الأبيض والأسود: فهي الأيام والليالي.

وفي السَّمك إذا عُرِفَ عددُهُ: إنه نساءٌ؛ فإذا كَثُرَ ولم يُعْرَفْ [عَدَدُهُ]: فهو مالٌ وغنيمة، بمنْزِلَة العبيد» اهـ.

وقال البغوي: « وأما التأويل بالضد والقلب، فكما أن الخوف في النوم يعبر بالأمن، لقوله ﷻ: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (النور:٥٥)، والأمن فيه يعبر بالخوف، ويعبر البكاء بالفرح، إذا لم يكن معه رنة، ويعبر الضحك بالحزن، إلا أن يكون تبسماً، ويعبر الطاعون بالحرب، والحرب بالطاعون، ويعبر العجلة في الأمر بالندم، والندم بالعجلة، ويعبر العشق بالجنون، والجنون بالعشق، والنكاح

وقال الشِّهاب العابر ـ رحمه الله ـ في «البدر المنير» (ص: ١٦٤-١٦٥): «واعتبر المعكوس، كاللُّوز للمتولِّي، أو لمن هو في شدّة زوال، لأنّ عكسه زَوْل. كما أنّ نجم: مُجَنٌ، ودرهم: همّ دَرّ. وقباءٌ: أَبِقَ. وكما قال لي إنسانٌ: وقع على رجلي عسل فأحرقها، فقلت له: تتلف رجلُك بلسع. وكما قال آخر: رأيتُ كأنّي آكل لحماً من لحم، وأنا في غاية ما يكون من الجوع، فقلت له: تحتاج فتأكل لحم رخم. وكما قال آخر: رأيتُ كأنّني وقعتُ في الجبّ المعمول للسّبع، فقلت له: ربما تقع في جب حبس. وكما قال آخر: كأنّني اشتريتُ دلواً، فقلت له: ترزق ولداً. فكان الجميع كما قلتُ بحمد الله تعالى. وعلى هذا فَقِسْ» اهـ

ولعلَّ أعظم ما يعين المعبِّر على تنشيط همّته في التَّعبير، وتقوية علمه في وجوه الاستنباط أن يدمن النَّظر في كتب السَّلف، حتى تمتلأ نفسه بالأساليب، والطُّرق المتَّبعة عندهم، سيما قراءته لكتب الحديث وملاحظة تعبيراته ﷺ[1] لأصحابه والنَّاس من حوله؛ فإذا أضاف إلى ذلك النَّظر مع التَّأمل في طرق تعبير أهل العلم المبرِّزين في هذا الفن، ازداد علماً ومعرفةً، وقويت نفسه على هذا العلم، حتى يرتقي فيه منازل المتقدِّمين.

« ثم الواجب على طلبة العلم وأهله أن يعتنوا بالرؤى التي تعرض لأحدهم، فيسعى الواحدُ منهم لتفهمها ومعرفةِ تأويلها، فهي إمَّا مبشِّرةٌ له بخير، أو محذِّرةٌ من شرٍّ، فإنْ أدرك تأويلَها بنفسه، وإلاَّ سأل عنها من له أهليّة ذلك وهو اللبيب الحبيب »[2].

وقد دلّت سنّة النبيّ ﷺ على هذا الأدب المذكور هنا، فهذا عمارة بن خزيمة بن ثابت يروي عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ: «أنّه رأى في المنام كأنه يسجد على جبين الرسول ﷺ فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «إنّ الرُّوح لتلقى الرّوح»، ثمّ أقنع له ﷺ رأسه، وأمره أن يسجد على جبهته ففعل».

وفي خبر آخر قال ﷺ: «صدّق رؤياك».

وفي خبر آخر قال ﷺ: «اجلس، واسْجُد، واصنعْ كما رأيت»[1].

وهذا يؤكد القول بسنيّة هذا الأدب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصّالحات.

تعبير الرؤيا يقوم على الظن (112)

فتعبير الرؤى يقوم على الظن، والظن يخطئ ويصيب، ولا يقطع أو يجزم المعبر بالتعبير وإنما يحتاط فيرجع في تعبيره لمشيئة الله - عز وجل -.

فالمعبر أو المفسر لا يعلم الغيب إطلاقاً، وليس التأويل إلا بأمارات وعلامات تؤخذ من الرؤيا، فتُعبّر على حسب ما يظهر للمعبر، أو بما يلهمه به الله - عز وجل - من علم وتفسير. وعلى صاحب التفسير ألا يعتقد اعتقاداً جازماً بمصداقية المعبِّر وصدق التعبير، فالمعبر بشر، فقد يصيب وقد يخطئ؛ لأن التعبير أمر اجتهادي مرجعه الظن.

(113)

لا يجوز للمعبر طلب آثار من السائل

إن المعبّر لا يجوز له مطلقاً أن يطلب آثاراً من طالب التعبير ـ كلباس أو أثر من آثاره أو نحو ذلك ـ، أو حتى اسمه كاملاً ؛ أو أسماء كامنة لمن لا يردون في الرؤيا، أو نحو ذلك. ومن فعل ذلك أو طلبه فاعلم أنه ساحر أو كاهن أو مشعوذ.

لكن قد يحتاج المعبر في معرفة أسماء من يردون في الرؤيا ؛ وذلك لعلاقة الجواب بالتعبير ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يَعْبُر بعض الرؤى مستعيناً بدلالة الأسماء ، كما في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : "**رأيت ذات ليلة، فيما يرى النائم، كأنا في دار عقبة بن رافع، فأُتينا برطب من رطب ابن طاب. فأولت الرفعة لنا في الدنيا والعاقبة لنا في الآخرة**"[1].

فأخذ النبي ﷺ من عقبة العاقبة، ومن رافع الرفعة، وأخذ طيب الدين من رطب ابن طاب.

قيل لابن سيرين ـ رحمه الله ـ : رجل رُؤي على حمار، ولا يزال يُلقيه في ماء وطين، ثم رؤي كأنه أردف جارية. قال : ما اسمها؟ قال : عتبة. قال : أُعتِب الرَّجُل"[2].

من ضوابط الرؤيا أنها ليست ملكاً للحالم فقط، بمعنى: أنه ليس من الضرورة أن يكون الحلم مختصاً بصاحبه، فقد يرى الإنسان أحلاماً تخص الآخرين وتعبيرها متعلّقٌ بغيره، وهو أصلٌ معروفٌ عند المعبّرين، وقد يظهر لهم ذلك من عناصر الرُّؤيا، أو عدم صلاحيتها لرائيها، ونحو ذلك من الأسباب..، كما كانت رؤيا ملك مصر- في قصة يوسف عليه السلام- فرؤياه كانت تتعلق بكل الناس الموجودين في مصر وما حولها من بلدان مجاورة.

قال الشيخ السعدي -رحمه الله- عند ذكره لرؤيا الملك في فوائد قصة يوسف: "أن الرؤيا تعبر بحال رائيها، والمناسبات المتعلقة بها، فكالرائي الملك الذي تتعلق به أركان الرعية وأمورها، ولهذا كانت رؤياه ليست خاصة له، بل تشمل الناس والرعية"[1] اهـ.

وفي هذا الضابط قال ابن قتيبة الدِّينوري- رحمه الله تعالى-: "ومن عجائب الرؤيا: أن الرجل يرى الشيء لنفسه -أو يرى له- فيكون ذلك لشقيقه أو ابنه أو شبيهه أو سميِّه"[2] اهـ.

ويصدق هذا القول حديث الرسول ﷺ والذي يقول: "لم يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا المُبَشِّرَاتُ"، قالوا: وما المبشّراتُ يا رسولَ الله؟ قال: "**الرُّؤيا الصالحةُ يراها الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أو تُرى لَهُ، جُزْءٌ من ستةٍ وأربعينَ جُزءاً مِنَ النُّبوةِ**"[3].

فصدق الرؤى تدل على صدق أصحابها. وهي منة من الله سبحانه لعباده وإحسان منه، فأحرى الناس بها أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3]، وحكى سبحانه عن يوسف فقال: ﴿هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾[4].

وقد ترجم البخاري -رحمه الله- في "صحيحه"، في ذلك عدة أبواب فقال: "باب رؤيا الصالحين"[5]، وقال: "باب الرؤيا من الله"[6]، وقال: "باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة"[7]، وقال: "باب المبشرات"[8].

وفي "صحيح مسلم": "إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة"[9]

(116)

السنة أن من رأى رؤيا لغيره أن يخبره بها

يدل لذلك ما أخرجه الإمام أحمد - رحمه الله -: حدث أبو إسرائيل الجُشمي عن شيخ لهم يقال له جعدة: أن النبي ﷺ رأى لرجل رؤيا، قال: فبعث إليه، فجاء، فجعل يقصها عليه، وكان الرجل عظيم البطن، قال: فجعل يقول بأصبعه في بطنه: "لو كان هذا في غير هذا، لكان خيراً لك"[1].

ودلالة هذا الحديث: أن الرؤيا قد يراها المؤمن أو تُرى له، فيسن لمن رأى رؤيا لغيره أن يخبره بها، أو يقصها عليه كما فعل الرسول ﷺ.

(117)

معظم الأحلام تأخذ الطابع الرمزي

فمعظم الرؤى تأتي في القسم المكني المضمر، وهو الذي يحتاج إلى تعبير، وفك رموزه. وهذه رحمة من الله سبحانه وتعالى؛ إذ لو تكشفت الأحلام وجاءت بطريقة واضحة وظاهرة ومباشرة، كما رآها الرائي، خاصة في الأحلام التي تدل على الموت، وعلى الكوارث، والمصائب، والنكبات، والأمراض، أو فقدان شيء مهم، فإن حياة الإنسان سوف تصبح جحيماً، ولا يستقر لها قرار، وتتوقف عندها المعاملات بين الناس... وترى كل واحد منشغل بما رآه أثناء النوم.

فأغلب ما يبنى عليه تعبير الرؤيا: المناسبات، وضرب الأمثال، والمشابهة في الصفات. نبّه عليه السعدي - رحمه الله - في "مؤلفاته"[1] وذكر في "التفسير"[2]: أنّ غالب ما يبنى عليه تعبير الرؤيا على شكل رموز، لكنّ رموزها سهلة التفسير والتعبير، فتكون واضحة الدلالة ولا تحتاج إلى كبير عناء في التعبير.

بعض الأحلام لها تعلق بالسحر والمس والعين

فمن تتكرر عنده مناظر الأوساخ والحشرات والمزابل والجرذان والمقابر وأماكن القفر والخراب، وكذلك تكرر رؤية الكلاب والقطط والحيات والعقارب ونحوها؛ فقد تكون رؤية هذه الأشياء منذرة إلى أن الإنسان الرائي واقع تحت تأثير السحر أو الخوف من السحر، أو أنه مصاب بمس شيطاني، أو منذرة له بأمراض أو عين أو نحو ذلك.

كما أن من التحذيرات التي تشير إليها الأحلام عند من به مس شيطاني، أو وسوسة شيطانية، أو خوف من الشيطان، رؤيته المتكررة لأناس بأشكال غريبة مخيفة وغير مألوفة، كأن يكونوا مفرطين في الطول أو القصر، أو البدانة أو النحول، أو عدم توازن في أحجام الأعضاء، كأن يكون الرأس كبيراً جداً والجسد صغيراً أو العكس، أو تكون الأيدي طويلة جداً والأرجل قصيرة جداً.. وهكذا[1].

كما أن كثرة الرؤى أو الأحلام الغريبة من الشخص قد تكون من المس الشيطاني.

على أن كل ما تقدم ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً على إطلاقه، ولكن لا بد أن نفرق فيمن يرى تلك الأشياء أو المناظر بكثرة ويتكرر عليه جنس هذه الرؤى، فهذا قد يكون واقع تحت تأثير السحر أو العين أو نحو ذلك مما تقدم، ونفرّق بين مَنْ لا يراها إلا قليلاً، كأن يكون رآها مرة أو مرتين فهذه لا تدل على شيء مما ذكر، وإنما تكون رؤيا تفسر حسب حال صاحبها من صلاحه واستقامته، أو غير ذلك، والله أعلم.

رؤيا المؤمن تكاد لا تكذب مع اقتراب الزمان

ويدل لذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة"[1].

قال ابن حجر - رحمه الله -: "حاصل ما اجتمع من كلامهم في معنى قوله: "إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب" إذا كان المراد آخر الزمان ثلاثة أقوال: أحدها: أن العلم بأمور الديانة لما يذهب غالبه بذهاب غالب أهله، وتعذرت النبوة في هذه الأمة، عوضوا بالمرائي الصادقة؛ ليجدد لهم ما قد درس من العلم. والثاني: أن المؤمنين لما يقل عددهم، ويغلب الكفر والجهل والفسق على الموجودين، يؤنس المؤمن ويعان بالرؤيا الصادقة إكراماً له وتسلية، وعلى هذين القولين لا يختص ذلك بزمان معين بل كلما قرب فراغ الدنيا وأخذ أمر الدين في الاضمحلال تكون رؤيا المؤمن الصادق أصدق. والثالث: أن ذلك خاص بزمان عيسى بن مريم، وأولها أولاها، والله أعلم"[2] اهـ.

وقال ابن أبي جمرة: "والحكمة في اختصاص ذلك بآخر الزمان أن المؤمن في ذلك الوقت يكون غريباً كما في الحديث: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً.."[3]، فيقل أنيس المؤمن ومعينه في ذلك الوقت فيكرم بالرؤيا الصادقة"[4].

(120)

صدق الرؤيا في حال تكرارها أو تواطئها

من الضوابط: أن الرؤيا الصادقة في حال تكرارها أو تواطئها، فإنه دال على صدقها وتحققها ووقوعها - بإذن الله تعالى - في المستقبل[1].

ويدل لذلك: حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - المتقدم "أن أناساً أروا ليلة القدر في السبع الأواخر، وأن أناساً أروها في العشر الأواخر، فقال النبي ﷺ: "التمسوها في السبع الأواخر"[2].

قال ابن حجر - رحمه الله -: "ويستفاد من الحديث أن توافق جماعة على رؤيا واحدة دال على صدقها وصحتها"[3].

من الرؤيا ما يدل على الماضي والحاضر والمستقبل

قال ابن أبي جمرة ونقله عنه ابن حجر في "الفتح"[1]: الغالب في الرؤيا الدلالة على المستقبل، ولكن قد تكون الرؤيا في الزمن الحال -أي الحاضر الذي يعيشه الرائي-، كما أنها قد تكون في الزمن الماضي.

ومن الدلالة على الماضي: قوله ﷺ: **"بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إني لأرى الرِّيَّ يخرج في أظافيري، ثم أعطيت فضلي يعني عمر. قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم"**[2].

قال ابن أبي جمرة: "وأما إعطاؤه فضله عمر ففيه إشارة إلى ما حصل لعمر من العلم بالله بحيث كان لا يأخذه في الله لومة لائم. وفيه أن من الرؤيا ما يدل على الماضي والحال والمستقبل، وهذه أولت على الماضي، فإن رؤياه هذه تمثيل بأمر قد وقع؛ لأن الذي أعطيه من العلم كان قد حصل له وكذلك أعطيه عمر، فكانت هذه الرؤيا تعريف قدر النسبة بين ما أعطيه من العلم وما أعطيه عمر"[3] اهـ.

ومما يدل على الماضي والحاضر معاً: ما ثبت في "صحيح البخاري"[4] عن أبي موسى رضي الله عنه أراه عن النبي ﷺ قال: **"رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين"**.

الغالب في الرؤيا الصادقة وقوعها متأخرة والمكروهة متقدمة

من الضوابط: أن الغالب في الرؤيا الصادقة أن يتأخر تفسيرها وتحققها، فقد لا تقع ولا تتحقق إلا بعد زمن بعيد؛ وذلك من كرم الله – سبحانه وتعالى – يبشر بالخير قبل وقوعه؛ لتفرح النفس وتستبشر بوصوله.

والغالب في الرؤيا المكروهة أن يتعجل وقوعها؛ ليبادر إلى التوبة؛ والاستعداد لما سيجري له من مصيبة ونحوها!

قال في "البدر المنير"(1): "الغالب من الرؤيا المليحة أن يتأخر تفسيرها؛ وذلك من كرم الله تعالى يبشر بالخير قبل وقوعه؛ لتفرح بوصوله، وربما يقدم تفسيره لأمر ضروري يحتاج إليه الرائي.

والغالب من الرؤيا الردية: أن يراها قريب وقوعها، أو بعد وقوعها؛ لأن لا يضيق صدره قبل ذلك. فإن رأى أحد ذلك فاسأل: هل جرى له شيء من الشر مما دل المنام عليه. فإن كان جرى قبله قليلاً فهو تفسيره، وإلا فيجري – يعني قريباً –" اهـ.

أرواح الأحياء والأموات تتلاقى أثناء النوم[1]

كثيراً ما نرى الأموات في أحلامنا، فنكلمهم ونتحدث إليهم، ونعطيهم ونأخذ منهم ونتعامل معهم ونبث أخبارنا، أو نخاف منهم، وكل هذا يحدث في عالم اسمه "عالم البرزخ"، فأرواح الأموات في عالم اسمه البرزخ، وهذا العالم ليس هو العالم المشهود أي - العالم الذي نعيش فيه- ولا هو الآخرة الموعودة، بل هو عالم بين هذين العالمين، فعندما ينام الإنسان وفي نومه موت مؤقت، تخرج روحه إلى عالم البرزخ فتلتقي بأرواح الأموات وتتعارف وتنقل صوراً على شكل أحلام ورؤى، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في شأن هذه الآية: "بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواح الموتى، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها"[3].

وقد أثبت أهل العلم هذا النوع من الرؤية، وعده بعضهم نوعاً من أنواع الرؤيا الصالحة أو الصحيحة، قال ابن القيم -رحمه الله-: الرؤيا الصحيحة أقسام: منها: إلهام يلقيه الله سبحانه في قلب العبد، ومنها: التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم، ومنها: عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له،

فكثيراً ما نرى الأموات في الأحلام، فيخبروننا عن أشياء فتكون هذه الأشياء صحيحة، وقد يقولون لنا عن أشياء فتقع في المستقبل، وقد يحذروننا من أشياء فيكون تحذيرهم في محله.

يقول ابن القيم - رحمه الله-: "شواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها إلا الله، والحس والواقع من أعدل الشهود بها، فتلتقي أرواح الأحياء والأموات، كما تلتقي أرواح الأحياء - ثم ساق الآية المتقدمة، وتفسير ابن عباس لها- ..

قال: وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات، أن الحي يرى الميت في منامه فيستخبره، ويخبره الميت بما لا يعلم الحي، فيصادف خبره كما أخبر في الماضي والمستقبل، وربما أخبره بمال دفنه الميت في مكان لم يعلم به سواه، وربما أخبره بدين عليه"[٣] اهـ.

الرؤيا قد تدل على أمرٍ أو عدة أمور مُرادة

من الضوابط: أن الرؤيا الواحدة ربما دلت على أمرٍ أو عدة أشياء أو أمور مرادة من هذه الرؤيا باعتبار أمور منها أنها مضرب مثل، والمثل قد يكون فيه وجه شبه واحد أو أكثر باعتبار المناسبة وهكذا.

ومن أمثلة أو دلالة ذلك في سورة يوسف:

١ ـ رؤيا الملك التي عبرها يوسف -عليه السلام- فإنه رأى سبع بقرات سمانٍ يأكلهن سبع بقرات عجاف، وسبع سنبلات خضر يأكلهن سبع سنبلات يابسات، والمراد من الدلالة واحد وهو ما ذكره بالسنين المخصبة والمجدبة. فهذا من دلالات الأشياء على شيء واحد.

٢ ـ رؤيا الفتيين: من عصر خمراً، في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾[1]، وفي تأويلها له: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾[2] فدلت على أمور منها: الخدمة لغيره، ومقصود العصر بالسقي، والمناسبة في سيده. وهذا من دلالة الشيء الواحد على عدة أشياء.

والآخر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾[3]، وتأويل يوسف له بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾[4] أيضاً دلت على أمور: القتل، والصلب، وأكل الطير من رأسه[5].

إمكانية رؤية حلمين أو أكثر في نوم واحد

قد يرى الإنسان رؤيا واحدة في منام واحد، وقد يرى أكثر من رؤيا في نوم واحد، أو في ليلة واحدة، وليس هناك قاعدة ثابتة بتحديد الأحلام أو الرؤى في نوم الإنسان.

وعلى هذا يمكن أن يقال: إنه يوجد تبعاً لهذا الضابط حالات:

الحالة الأولى: أن يرى الإنسان حلماً واحداً، أو رؤيا واحدة في ليلة واحدة، فمن الرؤى الصادقة التي هي من الله: كرؤيا إبراهيم في شأن ذبح ابنه إسماعيل - عليهما السلام -، وكرؤيا يوسف - عليه السلام - فقد رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له، وكرؤيا رئيس السقاة أنه يعصر خمراً، وكرؤيا رئيس الخبازين أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه.

وكالرؤى الثابتة في السنة عن رسول الله ﷺ: كرؤيا إعطائه مفاتيح خزائن الأرض[1]، وكرؤياه المسيح عيسى بن مريم[2]، وكرؤياه ﷺ أنه في دار عقبة بن رافع[3]...

ومنها: رؤيا أمّ العلاء لعثمان بن مظعون عيناً تجري[4]، ورؤيا عبد الله بن سلام وهو آخذ بالعروة[5]، ورؤيا عبد الله بن عمر ودخوله الجنة في المنام[6]، وكرؤيا الرجل الذي رأى ظلة تنطف السَّمْنَ والعَسَل[7].

الحالة الثانية: أن يرى رؤيا واحدة، وتتكرر عليه في ليلةٍ واحدة، أو في يومٍ واحد، أو في منامٍ واحد.

كرؤيا الرسول ﷺ لأناس من أمته غزاةً في سبيل الله يركبون ثبج البحر ملوكاً على الأسرة[2]. وقد تكرر عليه ذلك في يومٍ واحد.

الحالة الثالثة: أن يرى رؤيتين أو حلمين في نومٍ واحد.

كرؤيتي ملك مصر ـ في زمن يوسف ـ رؤياه البقرات، ثم رؤياه السنابل، فهما من نوعٍ واحد، وفي ليلةٍ واحدة[3].

وكمن يرى أنه ركب فرساً، أو سيارة، ثم رأى ـ في ذلك المنام ـ أنه اشترى فرساً، أو سيارة، أو بيتاً، أو نحو ذلك.

ومنها: كمن يرى حلماً ويكون من أضغاث الأحلام، أو حديث نفس، وهو ما يشغل بال الإنسان في اليقظة فينعكس عليه في المنام فيراه على شكل رموز وخيالات، أو يراه كما هو على الحقيقة في منامه، وهذا لا تأويل له، ثم يرى ـ مع حلمه هذا ـ رؤيا صادقة، ففي هذه الحالة جمع بين الرؤيا الصادقة، وبين الحلم في نومٍ واحد.

فكل ذلك من الممكن وقوعه، ولا غرابة فيه على الإطلاق.

الحالة الرابعة: أن يرى أكثر من رؤيتين، أو أكثر من حلمين في نوم واحد.

كمن يرى ثلاث رؤى صادقة في ليلة واحدة، وفي منام واحد، فيرى أنه يقرأ آيات من القرآن ويصعد، ثم يرى في رؤياه هذه أنه يحمل ولداً أو طفلاً، ثم يرى فيها أنه بنى داراً، وهكذا..

أو كمن يرى ثلاثة أحلام أو أكثر، في نوم واحد، كحديث نفس يشغل باله في اليقظة، ويتراءى له في المنام، أو يرى ما هو من الشيطان..

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: "رأيتُ في المنام أني أُهَاجِرُ من مكةَ إلى أرضٍ بها نَخْلٌ، فَذَهَبَ وهْلِي إلى أنها اليمامةُ أو هَجَرُ، فإذا هي المدينةُ يثربُ، ورأيتُ في رؤيَايَ هذه أني هززتُ سيفاً فانقطعَ صدرُهُ، فإذا هو ما أُصيبَ من المؤمنينَ يومَ أُحُدٍ، ثم هَزَزْتُه أخرى فَعَادَ أحْسَنَ ما كانَ، فإذا هو ما جَاءَ اللهُ به من الفتح واجتماعِ المؤمنينَ، ورأيتُ منها أيضاً بقراً، و الله خيرٌ، فإذا هُمُ النَّفَرُ من المؤمنينَ يومَ أُحُدٍ، وإذا الخيرُ ما جَاءَ اللهُ به من الخيرِ بَعْدُ، وثوابُ الصدقِ الذي آتانا اللهُ بَعْدُ، يومَ بدرٍ"(1).

أثناء الأحلام تتعطل أنظمة المكان والزمان

الأحلام بأنواعها الثلاثة: الرؤيا الصادقة: التي هي من الله تعالى، ورؤيا ما يكون من الشيطان، وهو ما تسميه الحلم، أو تهويل وتلعُّب الشيطان، وحديث النفس، وهي أفكار كان يفكر بها الإنسان في اليقظة فتتوارد في نومه، وهو ما يُسمَّى بأضغاث الأحلام، فكلُّها أثناء النوم تتعطل أنظمتها، سواء الزمانية أو المكانية.

فحينما يرى النائم حُلماً قد يمتد بالنسبة إليه زمناً طويلاً، وفي الحقيقة قد تكون مدة نومه قصيرة جداً، والعكس صحيح.

ولهذا نجد بعضنا يسبح في بحار أحلام عميقة، ويطول به الزمن في تلك الرؤيا أو الحلم، وتتواصل مجريات الأحداث وهو نائم على فراشه، فقد يرى أنه قائم وذاهب وراجع، وضارب ومضروب، ويرى أنه في مكانٍ ضيقٍ موحش، أو في مكانٍ واسعٍ بهيج، والذي حوله لا يرى ذلك ولا يشعر به، وقد ينتقل من مكانٍ إلى آخر في فترة زمنية قصيرة جداً، وقد يرى نفسه في مكانٍ واحد أو مكانين أو أكثر في نفس الوقت![1].

وقد يلتقي بعالمٍ آخر وبأناس في أماكن عدة، برّاً، أو جوّاً، أو بحراً، أو حتى في السماء، يلتقي بالملائكة، أو بالأنبياء... أو نحو ذلك؛ لا سيما في الرؤيا التي هي من ضرب الأمثال للنائم، وهذا النوع هو الأكثر، والذي يحتاج فيه إلى التعبير.

يغلب على الأحلام أن تُرى ولا تُسمع

من الممكن أن يرى الإنسان أحلاماً تحتوي على لغةٍ وكلام، لكن الأغلب والأكثر في الرؤى والأحلام أن مادتها لا تحتوي على لغة وكلام.

قال سبحانه ـ في شأن نبيه إبراهيم وابنه إسمعيل، عليهما الصلاة والسلام ـ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾[1].

وقال عز وجل ـ في شأن يوسف، عندما قص رؤياه على أبيه ـ: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾[2].

وقال عن السجينين: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾[3].

وفي رؤيا الملك: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾[4].

قال العلمي: "تعليقاً على قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ قلما يحلم الإنسان حلماً تحتوي مادته على لغة وكلام، وإنما الأكثر أن يرى الحلم ولا يسمع، وهو لذلك يسمى (رؤيا) فنحن في معظم أحلامنا خرس لا نتكلم وإنما نرى فقط.. ، ويوجد في السورة ـ أي سورة يوسف ـ خمسة مرائي:

الأولى: رؤيا يوسف أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له.

والثانية: رؤيا رئيس السقاة أنه يعصر خمراً.

والثالثة: رؤيا رئيس الخبازين أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه.

الغالب أن ما فُسر في النوم فهو تفسيره في اليقظة[1]

المقصود أن من رأى رؤيا ثم فسرت له في منامه، فإنه يكتفى بتفسيرها الذي ورد في المنام؛ ولهذا ورد في بعض الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أنه رأى بعضاً من الرؤى، أو رآها بعض أصحابه واكتفى بتعبيرها الذي ورد في المنام، ومن الأمثلة والأدلة على ذلك ما يأتي:

(١) حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرون الرؤيا على عهد رسول الله فيقصونها على رسول الله ﷺ فيقول فيها رسول الله ما شاء الله. وأنا غلام حديث السِّنِّ، وبيتي المسجد قبل أن أنكح، فقلت في نفسي: لو كان فيك خير لرأيت مثل ما يرى هؤلاء. فلما اضطجعت ليلة قلت: "اللهم إن كنت تعلم فيّ خيراً فأرني رؤيا. فبينما أنا كذلك إذ جاءني مَلَكان في يد كلِّ واحد منهما مِقْمَعَةٌ من حديد يقبلان بي إلى جهنم وأنا بينهما أدعو الله: اللهم أعوذ بك من جهنم، ثم أُراني لقيني مَلَك في يده مقمعة من حديد فقال: لن تراع، نعم الرجل أنت لو تكثر الصلاة. فانطلقوا بي حتى وقفوا بي على شفير جهنم، فإذا هي مطوية كطي البئر، له قرون كقرون البئر، بين كل قرنين مَلَكٌ بيده مِقْمَعَة من حديد، وأرى فيها رجالاً معلقين بالسلاسل، رؤوسهم أسفلَهُم عرفتُ فيها رجالاً من قريش، فانصرفوا بي عن ذات اليمين.

قال: فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "إنَّ عَبْدَ اللهِ رَجلٌ صَالِح". فقال نافع: لم يزل بعد يُكثِرُ الصَّلاة"[2].

دلالات الأرقام حجة في الأحلام

ويدل لذلك ما ذكره الله عز وجل في رؤيا يوسف -عليه السلام- في قول الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾[1].

فالكواكب وهم أحد عشر كوكباً (النجوم) في التأويل إخوته، والشمس أبوه والقمر أمه، وقيل: القمر أبوه، والشمس أمه؛ لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر[2].

فهنا دلت الأرقام على رموز لأشخاص (أحد عشر كوكباً) وهم إخوة يوسف -عليه السلام-.

التنبيه على أخطاء تقع لبعض المعبِّرين

سبق أن ذكرنا؛ أنّ التَّعبير علمٌ لا يخضع لأقيسةٍ مطّردةٍ يمكن تقعيدها، وضبطها لتعممّ بعد ذلك على كلِّ المرائي، فهو كما قال ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ في «عبارة الرؤيا» (ص: ٧٤ بتحقيقنا):

«كلُّ علمٍ يطلبُ فأصوله لا تختلف، ومقاييسه لا تتغيّر، والطريق إليه قاصدٌ، والسَّبب الدَّالُّ عليه واحدٌ، خلا التَّأويل، فإنّ الرُّؤيا تتغيّر عن أُصولها».

وكثيرٌ من هذه الأصول الموضوعة، لكي تُجعل محلاً لمعرفة وجوه الدَّلالات المعينة على معرفة الصَّواب في التَّعبير، إنّما وضعت بناءً على اجتهاد أهل العلم، وقد سبق أيضاً وقوع نزاعٍ بين المعبِّرين في هذه الدّلالات، لكونها تخضع للاجتهاد المحتمل للخطأ والصَّواب، ولذلك كان من الطَّبيعي أن تقع الأخطاءُ في كلام بعض المعبِّرين، لما يعتري البشر من الخطأ والصَّواب، ومن أظهر ذلك ما تقدّم معنا من اعتماد الأحاديث التي لا تصحّ بحالٍ من الأصول المسلّمة المعينة على معرفة الصَّواب.

﴿تكلُّف المعبِّر لمعرفة وجه الرُّؤيا، وتعبيرها﴾

يقع هذا الخطأ للمبتدئين منهم في التَّدرُّب على عبارة الرُّؤيا، أو لمن جهل حال الرَّائي، فلم يستطع أن يربط الرُّؤيا بحاله، وما يتعلَّق به المعنى.

ولهذا ذكروا في آداب المعبِّر: أنه يجب عليه التَّثبُّت فيما يرد عليه من الأحلام، مع ترك التعسُّف والتكلُّف في تأويلها.

كما أن المعبِّر لا يتعجَّل بتفسير الرُّؤيا، حتَّى يعرفَ وجهَها، ومخرجَها، ومقدارَها،

﴿التَّعبير بمقاربة اللفظ﴾

هذا من الأخطاء المشهورةِ في كتب المعبِّرين، وقد بيّن خطأ ما فيه الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ، وهو نوعٌ من التَّعبير المبتدع الذي يعتمد على صورة الكلمة الواحدةِ؛ ليعبِّرَها على أقربِ لفظٍ يشبهها، كقولهم في الحيّة: إنّها تعبَّرُ بالجنّة، وهذا تعبيرٌ بالخطِّ، كما يقول أهل التَّعبير، وذكره الحافظ في «الفتح» (٨/ ١٢٨و١٢٩و١٣٠)، وابن شاهين (ص: ٧٢٦)، والشّهاب العابر (ص: ٢٨٢)، ونصر بن يعقوب القادري (١/ ٣٨٨)، وجماعة.

بل ذكر الأُبيّ في «شرحه على مسلم» (٧/ ٥١٤ علمية) أنّه من طرق التفسير

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «بدائع الفوائد» (٢/٢٠٨-٢٠٩): «وهذه الجهة من جهات التَّعبير فاسدةٌ جدّاً، ولم يكن النبي ﷺ يدرك شيئاً من الخطّ أصلاً، ولا هذه جهةٌ صحيحةٌ من جهات التَّأويل، فلا يؤوَّل النَّرد بالبرد، ولا الزيد بالزُّند، ولا العينُ بالغين، ولا الحية بالجنة، وأمثال ذلك» أهـ. والله تعالى أعلم.

كذلك من أخطاء المعبِّرين ما كادت تطبق عليه كلمتُهم من أنّ النَّائم على جنبه الأيمن يرى الرُّؤيا الصَّادقة التي تكون من الله، ومَنْ نام على جنبه الأيسر، أو على ظهره يرى الرُّؤيا من الأرواح، وأمّا ما كان منها في منامه على بطنه فهو أضغاث الأحلام[1].

والصَّواب في ذلك أنّه يُسَنُّ للعبد أن ينام على جنبه الأيمن، كما أنّه نُهي عن النَّوم على البطن، لأنّها ضجعةٌ يُبغضها الله[2]، ولكن لا تعلّق لهاتين الهيئتين بمسألة أضغاث الأحلام، وصدقها من كذبها، أو على الأقلّ يُقالُ: تفتقر هذه الأحكام لنصوص صريحة حتى يحتجّ بها، ومن قال بهذا لم يورد في المسألةِ شيئاً.

﴿خطأ المعبِّرين في منع النِّساء من تعبير الرُّؤيا﴾

كذلك من أخطاء المعبِّرين ما صرَّح به بعضهم من منع النِّساء عبارة الرُّؤيا، وقالوا: «يحصر ذلك في الرِّجال دونهن؛ بل قالوا: إنَّ من آداب الرَّائي... أن لا يقصَّها ـ أي: الرُّؤيا ـ على امرأة ولا عدوٍّ ولا جاهلٍ..»[٢]!!

﴿ اعتبار كثيرٍ منهم لمسألة الزمن والوقت في صدق الرُّؤيا ﴾

يقول العلاّمة الخطابي ـ رحمه الله ـ: «والمعَبِّرون يزعمون أنَّ أصدق الرُّؤيا ما كان في أيام الرَّبيع ووقت اعتدال الليل والنهار....» أهـ[2].

وقال البغوي ـ رحمه الله ـ كذلك، وهذا نصُّ كلامه: «والمعبِّرون يقولون: أصدق الرُّؤيا في وقت الرَّبيع، أو الخريف عند خروج الثِّمار وعند إدراكها، وهما وقتان يتقارب فيهما الزَّمان ويعتدل الليل والنهار، قالوا: ورؤيا الليل أقوى من رؤيا النَّهار، وأصدق ساعات الرُّؤيا وقت السحر.......» أهـ[3].

وفي «عبارة الرؤيا» (ص: ١٩٠ بتحقيقنا) لابن قتيبة ـ رحمه الله ـ: «وقد تعبَّر الرُّؤيا بالوقت: كقولهم في راكب الفيل: إنّه ينال أمراً جسيماً قليل المنفعة، وإنْ رأى ذلك في نوم النَّهار: طلَّق امرأته، أو أصابه بسببها سوء.

﴿من أخطاء المعبِّرين اعتبارهم لسعود الأيّام ونحوسها﴾

(139)

كقولهم مثلاً: «لا بأس بالمعبِّر إذا علم ما يختصُّ بكلِّ يومٍ من الأيامِ السَّبعة، وسعودها، ونحسها، وساعاتها، وما يختصُّ بها، وقُصَّ عليه رؤيا أن يتحرَّى ساعةَ سعدٍ، لكون أحسن من ساعةِ نحسٍ» اهـ.

ذكر هذا القادريُّ في «التَّعبير» (١/١١١)، وابن شاهين في «الإشارات» (ص:

وقال أبو سعيد الواعظ في «تفسير الأحلام» (ص: ٤٤ المنسوب لابن سيرين):

«ويكره أن تقصّ الرُّؤيا يوم الثُّلاثاء، لأنّه يوم إهراق الدماء، ويوم الأربعاء لأنّه يوم نحسٍ مستمر، ولا يكره في سائر الأيام» أهـ.

وهذا من الخطأ بلا ريب، إذ الأيام لا سعود لها ولا نحوس، بل هي مربوبةٌ مخلوقةٌ، تجري بها أقدار الله، فالله ﷻ هو الذي قال في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]. ومثل هذا الكلام مبنيٌّ على أحاديثَ واهياتٍ، وأخبارٍ تالفاتٍ، لا تذكر إلاّ في الموضوعات من كتب الحديث.

أحكام رؤية الله تبارك وتعالى في المنام

يتعرّض المعبّرون في تصانيفهم لتأويل رؤية الله تعالى في المنام، مسلّمين بإمكان ذلك أصلاً، وأنّه من جملةِ المنامات المعبّرةِ بوجوهٍ من التعبير المناسبة لحال الرّائي من صلاحٍ أو فسادٍ.

وينقلون عن ابن سيرين ـ رحمه الله ـ أنّه قال: «من رأى الله تعالى وهو يتكلّم معه دلّ على أنّه يكون عند الله عزيزاً لقوله تعالى: ﴿ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم:٥٢]»[1].

عن أبي حاتم أنّه قال: «سألت محمد بن سيرين: أيُّ الرؤيا أصحّ عندك؟ فقال: أن يرى العبدُ خالقه»[2].

وأمثال هذا يحكيه المتقدّمون منهم كالكرماني فيما نقله عنه ابن شاهين في «الإشارات» (ص: ٦٠٥) مقرًّا له.

وفي «عبارة الرؤيا» (ص: ٢١١بتحقيقنا) لابن قتيبة ـ رحمه الله ـ تحت (باب معرفة الأصول) ذكر (تأويل رؤية الله تعالى في المنام) فقال:

«قال المفَسِّرون من رأى الله ﷻ بمكانٍ، شَمِلَ العَدْلُ ذلكَ الموضِعَ، وأتى أهلَهُ الخِصْبُ والفرَحُ، والخيْرُ؛ لأنّ الله هو الحقُّ المبين، له الدُّنيا والآخرةُ، وعنده مفاتح الرِّزقِ.

وقال المفسرون: في قول الله ﷻ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]؛ «النَّظرُ إلى الله»[3].

والمقصود أنّ إمكان رؤية الباري في المنام، وتعبيره بما يتناسب مع حال الرائي له، من المشهور جداً في كتب المعبّرين.

ولذلك قال الحافظ ـ رحمه الله ـ في «الفتح» (٤١٦/١٤ ط الفكر) وعنه القسطلانيّ في «المواهب اللّدنيّة» (٦٦٦/٢): «جوّز أهل التّعبير رؤية الباري ﷻ في المنام مطلقاً، ولم يجروا فيها الخلاف في رؤيا النبي ﷺ، وأجاب بعضهم عن ذلك بأمورٍ قابلةٍ للتأويل في جميع وجوهها، فتارةً يعبَّر بالسلطان، وتارةً بالوالد، وتارةً بالسيّد، وتارةً بالرئيس، في أيِّ فنٍّ كان، فلمّا كان الوقوف على حقيقة ذاته ممتنعاً، وجميع من يعبَّر به يجوز عليهم الصدق والكذب، كانت رؤياه تحتاج إلى تعبيره دائماً، بخلاف النبي ﷺ فإذا رؤي على صفته المتفق عليها، وهو لا يجوز عليه الكذب، كانت في هذه الحالة حقاً محضاً لا يحتاج إلى تعبير» اهـ[٢].

ويؤيّدُ القول بالإجماع المذكور ما يورده أكثر أهل العلم في تصانيفهم المختلفة في سائر الفنون، ككتب الآداب، والتراجم، والسير، والتواريخ، وغيرها من رؤية الصالحين لربّهم ﷻ في المنام مسطرين ذلك، من غير تعليق، أو إعتراض، أو شرح مما يؤكد تسليمهم به ورضاهم عنه على أنّه من الحقّ والصواب الذي يقع لبعض العباد كرامةً لهم.

وهذا مع كثرته في كتب المؤرخين والمحدّثين، ممّن صنّفوا في السِّيَرِ والرّجال من أهل النّقد والتعقّب، لا تجد عليه حرفاً من الاعتراض أو النّكير من واحدٍ منهم؛ من أوضح البراهين على اعتقادهم صحّة ذلك، وإمكانه وإلاّ فلا يحلُّ لهؤلاء الكبار أن يذكروا ذلك من غير ترياق النّصح، وفاضل الكلام على إمكانه أو عدمه، وهم الّذين يُظنُّ بهم بلوغ كمال النهاية في النّصح لعباد الله، الذين يطالعون ما يكتبون، حتّى أنّك تجد في كلامهم ما يُبرهن صدقهم، وإخلاصهم، بنقدهم لكبار مشاهير الأئمّة بما يستحقه، وبما هو فيه.

وذلك من الدلائل العظيمة على أنّهم لا يخافون في الله لومة لائم، فلا يُظنّ بهم والحالةُ هذه أن يوردوا أمثال هذه المنامات مع كثرتها، حتّى لا يكاد يخلوا منها أيُّ مصنّفٍ في التاريخ، والتراجم، والسير، والآداب، وغيرها، دون أن يبيّنوا عوارها وما فيها، وهذا وحده دليلٌ مستقلٌ لمن قال بجواز الرؤية المذكورة.

يقولُ الفرّاء في « إبطال التأويلات » (١/ ١٢٨-١٢٩) وهو يحكي أدلّة الجواز: « ولأنّه إجماع أهل الأمصار والأعصار، وذلك أنّ عصراً بعد عصرٍ من لدن التابعين ومن بعدهم، يخبر أنّه رأى ربّه ولا يُنْقَلُ عن أحدٍ من أهل العصر الإنكار عليه، فدلَّ سكوتهم على جواز ذلك » أهـ.

وقال شيخ الإسلام في «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٧٣-٧٤): «وما زال الصّالحون وغيرهم يرون ربّهم في المنام ويُخاطبهم، وما أظنّ عاقلاً يُنكرُ ذلك، فإنّ وجود هذا ممّا لا يمكن دفعه، إذ الرؤيا تقعُ للإنسانِ بغير اختياره، وهذه مسألةٌ معروفةٌ، وقد ذكرها العلماءُ من أصحابنا وغيرهم في أصول الدّين..الخ» وسيأتي معنا بطوله إن شاء الله.

وقد استدلّ بهذا ملاّ علي القاري في «شرح الفقه الأكبر» (ص: ١٨٦-١٨٧) و«مرقاة المفاتيح» (٨/ ٤٢٤-٤٢٥ علميّة)، وابن الشاط في «إدرار الشروق» (٤/ ٤٢١ علميّة)، وابن رجب في «إستنشاق نسيم الأنس» (ص: ٩٨).

وها هنا قاعدةٌ شريفةٌ جدّاً وضعها شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ تعينُ على تقرير ذلك أكثر، وتوضّح المراد منه على وجه أظهر، فقد قال في «الفتاوى» (٢٢/ ٣٦٣-٣٦٤):

«إن ما توفرت له هِمَمُ الخلق ودواعيهم على نقله وإشاعته يمتنع في العادة كتمانه، فانفراد العدد القليل به يدلُّ على كذبهم، كما يُعْلَم كذب من خرج يوم الجمعة وأخبر بحادثة كبيرة في الجامع، مثل: سقوط الخطيب وقتله وإمساك أقوام في المسجد، إذا لم يخبر بذلك إلاّ الواحد والاثنان، ويعلم كذب من أخبر أن في الطرقات بلاداً عظيمة، وأمماً كثيرين، ولم يخبر بذلك السيارة، وإنما انفرد به الواحد والاثنان.

فإن رآه تقدس اسمه وقد نزل إلى الأرض والملائكة في سكينة، فإن العدل والخصب يسطان في ملك الأرض، ويعيش أهلها بالنصر والنعمة.

فإن رآه سبحانه وقد سجد له، فهو يقربه له لقول الله تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق:١٩].

فإن رآه سبحانه يكلمه بكلمة من وراء حجاب، حسن دينه وأنفذ وصيته وأمانه في يده، وصار في سلطان قوي يقرب فيه من الخليفة.

فإن رآه تقدّست أسماؤه، وقد أعطاه شيئاً من محبوب الدنيا ومتاعها يداً بيد، فهو يعطيه مثله في اليقظة مفاجأة، ولا يجد له في دينه، ويؤتيه ولاية وملكاً وبقاء وقرباً من الله.

فإن رآه وهو يعظه، فإنّ عبده ينتهي عمّا يكرهه تعالى منه، لقوله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠].

فإن كساه فإنه يصيبه ببلاء وهمّ وسقم ما دام في الدنيا، ويأجره عليه أجراً عظيماً، ويوجب له الجنّة. وكذلك إن حكم عليه في النوم بحكم أو أمره بأمر، فهو في اليقظة كما حكم وأمر به، لقوله تعالى: : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين:٨].

وإن رآه ينظر إليه فهي رحمتُه له، وإن رآه معرِضاً عنه فهو تحذير للذنوب، يقول الله ﷻ في قوم لا تنالهم رحمتُه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [آل عمران:٧٧]، ويقول الداعونَ في الدّعاءِ: « اللَّهم انظرْ إليَّ برحمتك » . وإن أعطاه شيئاً من متاع الدُّنيا: فإنّ ذلك عِزٌّ وابتلاء من مَصَايب وأسقام تؤدِّيه إلى رحمَتِهِ، وكذلك إن رآهُ مَعَهُ على فراشٍ، أو في بيتٍ، أو رآه يَعِظُهُ، أو يعاتِبُهُ، أو يُمرِّضُهُ، أو يكتنِفُهُ: فذلك كُلّه بِرُّهُ بِهِ، وعطفُهُ عليه مع تمحيصٍ واختبارٍ مِنْهُ، لأنّ الله ﷻ ووعْظَهُ وإقبالَهُ: هو نظرُهُ لعبدِهِ بما يبقى له عنده، لا بمالٍ يزولُ عَنه، وليس يَتَغيّرُ هذا إلاّ أنْ يراه بغير ما هو أهله، أو على خلافِ ما يوصف به ﷻ، فيكونُ ذلك دليلاً على هوىً في الدِّينِ من بَغْيٍ وكذِبٍ عليه أو بدعةٍ في الإسلام» .

وقال القادريُّ في « تعبير الرؤيا » (١/ ١١٧-١٢٢ عالم الكتب): « من رأى الله تعالى في النوم على نوره وبهائه، كأنّه سبحانه أكرمه، وأدناه، وقرّبه، وغفر له، أو حاسبه وحسن قبوله تعالى له، وبشّره به، وسكون عبده إليه سبحانه، فإنّ ذلك يدلُّ على لقائه إيّاه على مثل هذا الحال، ودخوله الجنّة.

ثبت في جملةٍ من الأحاديث الصحيحة، والحسنة، أنّ الشيطان لا يستطيع أن يتصوّر في المنام بصورةِ نبيّنا ﷺ، ولا أن يعرض للرائي بصورةٍ تشبهه شبهاً قريباً بحيث يخفى على الرّائي أهو النبيّ ﷺ أم لا؟.

وأشهر هذه الأحاديث ما أخرجه البخاري (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦) وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً: « من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، أو لكأنّما رآني في اليقظة، ولا يتمثّل الشيطان بي » أهـ.

وفي البخاري (٦٩٩٦)، ومسلم (٢٢٦٧) من حديث أبي قتادة - رضي الله عنه - مرفوعاً: « من رآني فقد رأى الحق » .

وقال مرّةً: « من رآني فقد رأى الحقّ فإنّ الشيطان لا يتكونني » ، وقال في أخرى: « فإنّ الشيطان لا يتزيّا بزيّي »[1].

وفي خبرٍ آخر: « إنّ الشيطان لا يتخيّل بي » .

وهذه الروايات كلّها صحيحةٌ، وأكثرها في « الصحيحين » ، ومعناها كما هو ظاهرٌ منها للوهلة الأولى، فهي صريحةٌ بأنّ الذي يرى النبيَّ ﷺ في المنام، قد رآه حقيقةً، ولا تكون تلك الصورة غير صورة النبيِّ ﷺ، ولو أنّ الرّائي رآه حقيقةً لطابق ما رآه في المنام ما كان في اليقظة، فيكون في اليقظة حقّاً وحقيقةً، وفي المنام

واعلم ـ أكرمك الله ـ أنّ المقصود بقوله ﷺ: « من رآني... » ؛ أي: رآني على صورتي الحقيقيّة، وصفتي وهيئتي المعروفة عنّي في أيِّ مرحلةٍ من مراحل عمري[٢].

فإنّ هذا، هو المتبادر من هذه الأخبار وأمثالها، ثمّ هو الذي فهمه السَّلف ـ رضي الله عنهم ـ من دلالتها، ولفظها. كما في خبر عوف بن أبي جميلة، عن يزيد الفارسي ـ رحمه الله ـ ـ وكان كاتباً يكتب المصحف ـ قال: « رأيت النبيّ ﷺ في المنام زمن ابن عباس فقلت لابن عباس: إني رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ كان يقول: « إنَّ الشيطان لا يستطيع أن يتشبّه بي، فمن رآني في النوم فقد رآني » ، هل تستطيع أن تنعت لي هذا الرجل الذي رأيت في المنام؟ قال: نعم، قال: أنعت لك رجلاً بين الرّجلين جسمه، ولحمه أسمر إلى البياض، أكحل العينين، حسن الضحك، جميل دوائر الوجه، قد ملأت لحيته ما بين هذه إلى هذه ـ قد ملأت نحره ـ قال عوف: ـ ولا أدري ما كان هذا النعت ـ فقال ابن عباس: لو رأيته في اليقظة ما استطعت أن تنعته فوق هذا » اهـ[٣].

ولذلك كان إمام المعبّرين من التابعين محمد بن سيرين ـ رحمه الله ـ إذا قصّ عليه رجلٌ رؤيا أنّه رأى رسول الله ﷺ قال له: « صِفْ لِيَ الذي رأيت، فإن وصف له صفةً لا يعرفها عن النبي ﷺ قال له: لم تره »[1].

قال القسطلانيُّ ـ رحمه الله ـ في « إرشاد الساري » (ص: ١٠٩): « لا تعتبر رؤيته ﷺ إلاّ إذا رآه الرّائي في صورته التي جاء وصفه بها في حياته».

ومثله قول القاضي عياض في « إكمال المعليم » (٧/ ٢١٩): « ويحتملُ أنّ المراد بالحديث إذا رآه ﷺ على صفته المعروفة له في حياته فإن رأى خلافها كانت رؤيا تأويل لا رؤيا حقيقية »[2] اهـ.

وبه قال العلاّمة ابن رشد في « فتاويه »[2] (١/ ٦١١-٦١٢)، ونقله عنه البرزلي في « فتاويه » (٤/ ١١٤)، والونشريسي في « المعيار المعرب » (١٠/ ٢١٧)، والشاطبي في « الاعتصام » (١/ ٣٣٥)، قال: « وليس معنى قوله ﷺ: « من رآني فقد رآني حقاً » أنَّ كلَّ من رأى في منامه أنه رآه؛ فقد رآه حقيقة، بدليل أن الرائي قد يراه مرات على صور مختلفة، ويراه الرائي على صفة، وغيره على صفة أخرى، ولا يجوز أن تختلف صور النبي ﷺ، ولا صفاته، وإنما معنى الحديث: من رآني على صورتي التي خلقت عليها فقد رآني، إذ لا يتمثل الشيطان بي، إذ لم يقل ﷺ: من رأى أنه رآني فقد رآني، وإنّما قال: « من رآني فقد رآني » ، وأنّى لهذا الرائي الذي رأى أنه رآه على صورته الحقيقية أنه رآه عليها، وإن ظنّ أنه رآه ما لم يعلم أنّ تلك الصورة صورته بعينها، وهذا ما لا طريق لأحد إلى معرفته »[3].

قال الحافظ: « ومنهم من ضيّق الغرض في ذلك، فقال: لا بدّ أن يراه على صورته التي قبض عليها، حتى يعتبر عدد الشعرات البيض التي لم تبلغ عشرين شعرة. والصواب التعميم في جميع حاله بشرط أن تكون صورته الحقيقية في وقت ما، سواء كان في شبابه أو رجولته أو كهولته، أو آخر عمره... » .

وقال الشيخ علي القاري في « شرح الشمائل » (٢/ ٢٩٣): « وقيل إنه مختص بأهل زمانه ﷺ، أي: من رآني في المنام يوفقه الله تعالى لرؤيتي في اليقظة. ولا يخفى بُعدُ هذا المعنى، مع عدم ملاءمته لعموم (من) في المبنى، على أنه يحتاج إلى قيود، منها: أنه لم يره قبل ذلك، ومنها أنّ الصحابي غير داخل في العموم.. » .

قلت: ولا أعلم لهذا التخصيص مستنداً إلا أن يكون حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عند البخاري (٦٩٩٣) مرفوعاً بلفظ: « **من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي** » . فقد ذكر العيني في « شرح البخاري » (٢٤/ ١٤٠) أنّ المراد أهل عصره ﷺ، أي: من رآه في المنام وفقه الله للهجرة والتشرف بلقائه ﷺ.. » .

ولكنني في شك من ثبوت قوله: « فسيراني في اليقظة » ، وذلك أن الرواة اختلفوا في ضبط هذه الجملة: « فسيراني في اليقظة » ، فرواه هكذا البخاري كما ذكرنا، وزاد مسلم (٧/ ٥٤): « **أو فكأنما رآني في اليقظة** » . هكذا على الشك.

قال أهل العلم من المعبِّرين وغيرهم: « لا ينبغي لمن رأى النبيَّ ﷺ أن يهمل أمر الرؤيا؛ لأنها إمَّا بشرى بخيرٍ أو إنذار من شرٍّ؛ إمَّا ليخيف الرَّائي، وإمَّا ليتزجر عنه، وربَّما لينبّه على شيءٍ ما سيقع له في دينه أو دنياه »[٣]

وقالوا أيضاً: « من رأى رسول الله ﷺ في المنام، فإنه قد رأى خيراً عظيماً، فلو رآه مثلاً قد ملأ داراً فإنه يدل على امتلاء تلك الدار بالخير والبركة، وقالوا: هي دوماً بشرى لرائيها، أنه يموت مثلاً على الإسلام، ويجتمع مع النبيِّ ﷺ على الحوض، وفي جنان الرحمن... »[٤].

يزعم بعض المتصوِّفة، وغيرهم من ضعاف العلم، أنَّ رؤية النبيِّ ﷺ ممكنةٌ بصلواتٍ خاصَّةٍ تؤدّى في ليلةِ الجمعةِ، وعلى هيئةٍ خاصةٍ، من أتى بها رآه في ليلته تلك.

وهذا أيضاً من محدثات العبادات التي لم تثبت عنه ﷺ، ولا عن أحدٍ من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، أو التَّابعين، أو الأئمة من بعدهم.

وليس من شكٍّ أنَّ ما كان هذا حاله، مما لم يعرف، أو يثبت عن هؤلاء الكرام، ومنهم نبيّنا ﷺ، فهو باطلٌ، ولا يجوز العمل به، أو اعتقاد حِلّه وجوازه.

وليس هذا القول بالجديد أو الغريب على خبط الصوفيّة وأتباعهم، ولا هو بأوّل محدثات القوم هداهم الله.

ففي كتاب «مفاتيح الفرج» (ص: ٤٨-٥٣)، صورٌ غريبةٌ لصلواتٍ وعباداتٍ تؤدّي إلى رؤية النبيّ ﷺ في المنام.

من ذلك مثلاً: قراءة سورة الكوثر ألف مرّةٍ مع الصّلاة على النبيِّ ﷺ ألف مرّةٍ[1].

ومن ذلك أيضاً: الإغتسال ليلة الجمعة ثمّ صلاة ركعتين يُقرأ فيهما: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] ألف مرّةٍ.

وهذا الصورة الأخيرة، قد رويت عن نبيّنا ﷺ بأحاديث مكذوبةٍ، وموضوعةٍ.

(154)

سئل الإمام النووي رحمه الله:

هل رؤيا النبي عليه الصلاة والسلام مما يختص به الصالحون؟

فأجاب يراه الصالحون وغيرهم.

حكم الاستناد إلى المنامات والأحلام
في أخذ الأحكام الشرعيّة

هذه المقدّمة من أهم المقدّمات، وأكثرها فائدة، وقد ضلَّ في فهمها طوائف من الصوفيّة، وغيرهم، فباتوا يأخذون دينهم من الأحلام والمنامات ويعتمدون عليها وعلى الكشف، والإلهام لتلقّي أحكام الشرع، والفهم عن الله ورسوله ﷺ.

وقد اتفق أهل العلم قديماً وحديثاً على أنَّ الرُّؤيا لا تقوم بها حجةٌ في دين الله، وأنّها مقصورةٌ على التحذير والتبشير، وتصلح للاستئناس إذا ما وافقت الحكم الشرعيّ الذي دلّت عليه مصادر الشرع الأصليّة.

وهذا هو المذهب الحقُّ الوسط؛ بين غلوّ الصوفيّة في الاعتماد على المنامات، والكشف، والإلهام، والهواجس، والعلم اللّدُنيّ، وغيرها من العلوم الروحيّة عندهم، وبين إفراط المعتزلة والقدريّة في إنكارهم للأحلام والمنامات أصلاً، وردّ دلالتها من التحذير والتبشير والاستئناس، ونحوها من الآثار المترتبة عليها.

وكلُّ من طالع كتب الصوفيّة أو تدبّر في كلامهم، ظهر له إعراضهم الكامل عن علم الكتاب والسنّة - اللّذين لا يمكن الحصول على الهداية إلاّ عن طريقهما - بل هم يحاربون العلم، وأهله، ولا يصرفون أتباعهم إلاّ إلى علوم الذوق، والسلوك، كما فضحهم بذلك الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال »، فقال فيه (ص: ٦١): « ابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم... حتى اطلعت على كُنْهِ مقاصدهم العليّة، وحصّلْتُ ما يمكن أن يحصلَ من طريقهم بالتعلّم والسماع، فظهر لي أنَّ أخصَّ خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلّم، بل بالذوق والسلوك».

إنَّ القول بجواز ذلك ردٌّ في الحقيقة لكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وفيه فتح لباب من أبواب الضلال العريض، وذلك أن لكلِّ أحدٍ أن يقول: قد أمرني ربي في المنام بكذا وكذا أو يقول: جاءني النبي ﷺ فسألته عن كذا وكذا. وليست هذه هي طريقة أهل الإسلام في تلقي أحكام الدين واعتماد مصادره، بل هي من أساليب أهل البدع وغلاة المتصوفة وأهل الأهواء، الذين لا يرعوون أن يردوا أحاديث النبيّ ﷺ تصحيحاً وتضعيفاً إلى هذه الأهواء السقيمة. فترى واحدهم بحجة الكشف والفتح يقول: حدّثني قلبي عن ربي، أو ربما قال - كما تقدّم -: هذا الحديث ضعيفٌ من طريق الإسنادِ صحيحٌ من طريق الكشف والمنام.

ولذلك حارب أهل العلم هذه البدعة، وبيّنوا ما فيها من المفاسد والشرور، قال النوويُّ - رحمه الله -: « لا يقطع بأمر المنام شيء، ولا تبطل به سنّة، ولا تثبت به سنّة لم تثبت، وهذا بإجماع العلماء، هذا كلام القاضي عياض[1] وكذا قاله غيره من أصحابنا وغيرهم، فنقلوا الاتفاق على أنه لا يغير بسبب ما يراه النائم ما تقرر في الشرع، وليس هذا الذي ذكرناه مخالفاً لقوله ﷺ: « من رآني في المنام فقد رآني »[2]... فإن معنى الحديث أن رؤيته صحيحة، وليست من أضغاث الأحلام، وتلبيس الشيطان، ولكن لا يجوز إثبات حكم شرعي به، لأنه حالة نومٍ، وليست حالة ضبطٍ، وتحقيق لما يسمعه الرائي» .

قال: « وأمّا إذا رأى النبي ﷺ يأمره بفعل ما هو مندوب إليه، أو ينهاه عن منهيّ عنه، أو يرشده إلى فعل مصلحة، فلا خلاف في استحباب العمل على وفقه؛ لأن ذلك ليس حكماً بمجرد المنام بل بما تقرر من أصل ذلك الشيء والله أعلم » اهـ[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في « مجموع الفتاوى » (١٣/ ٧٢ـ٧٥):

« فهؤلاء يتبعون ظناً لا يغني من الحق شيئاً، ولو لم يتقدموا بين يدي الله ورسوله؛ بل اعتصموا بالكتاب والسنّة، لتبيّن لهم أن هذا من الشيطان، وكثير من هؤلاء يتبع ذوقه ووجده وما يجده محبوباً إليه بغير علم ولا هدى ولا بصيرة، فيكون متبعاً لهواه بلا ظن، وخيارهم من يتبع الظن وما تهوى الأنفس. وهؤلاء اذا طلب من أحدهم حجّة، ذكر تقليده لمن يحبه من آبائه وأسلافه، كقول المشركين: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٣] وإن عكسوا احتجّوا بالقدر، وهو أنّ الله أراد هذا وسلّطنا عليه، فهم يعملون بهواهم وإرادة نفوسهم بحسب قدرتهم كالملوك المسلطين، وكان الواجب عليهم أن يعملوا بما أمر الله، فيتبعون أمر الله وما يحبه ويرضاه، لا يتبعون إرادتهم وما يحبونه هم و يرضونه، وأن يستعينوا بالله فيقولون: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، لا حول ولا قوة الاّ بالله، لا يعتمدون على ما أوتوه من القوّة والتصرّف والحال، فإنّ هذا من الجد، وقد كان النبيّ ﷺ يقولُ عقب الصلاة وفي الاعتدال بعد الركوع: « **اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد** »[1].

فليس في المحدثين الملهمين أفضل من عمر - رضي الله عنه - ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول، ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله؛ بل يجعل ما ورد عليه إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع إلى السنّة، وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه، فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليمه، كما جرى يوم الحديبية ويوم مات الرسول، ويوم ناظره في مانعي الزكاة، وغير ذلك.

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنّة، تبعاً لما جاء به الرسول، لا يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لما ورد عليه، وهؤلاء الذين أخطؤا وضلّوا وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم، وظنّوا أنّ ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول.

وأيضاً شارك العلاّمة الشاطبيّ ـ رحمه الله ـ في بيان خطر الاعتماد على (الحجج المناميّة) لأخذ لأحكام الشرعية؛ فقال في كتابه « الاعتصام » (٢/ ٧٨ وما بعدها ـ بتحقيقي): « وأضعف هؤلاء احتجاجاً قومٌ استَنَدوا في أخذ الأعمال إلى المنامات، وأقبلوا وأعرضوا بسببها؛ فيقولون: رأينا فلاناً الرَّجل الصَّالح في النَّوم، فقال لنا: اتركوا كذا، واعملوا كذا.

ويتَّفق مثل هذا كثيراً للمترسمين[٢] برسم التَّصوف، وربَّما قال بعضُهم: رأيتُ النبيَّ ﷺ في النَّوم، فقال لي كذا، وأمرني بكذا، فيعمل بها، ويترك بها، مُعْرِضاً عن الحدود الموضوعة في الشَّريعة وهو خطأ؛ لأنَّ الرُّؤيا من غير الأنبياء لا يُحكَم بها شَرْعاً على حال، إلاّ أن نعرضها على ما في أيدينا من الأحكام الشرعيَّة، فإن سوَّغتها؛ عُمِل بمقتضاها، وإلاَّ؛ وجب تركُها والإعراضُ عنها، وإنما فائدتها البشارة والنذارة خاصة، وأمّا استفادة الأحكام؛ فلا.

فلو رأى في النوم قائلاً يقول له: إن فلاناً سرق فاقطعه، أو عالم فاسأله، أو اعمل بما يقول لك، أو فلان زنى فحُدَّه، أو ما أشبه ذلك؛ لم يصح له العمل، حتى يقوم له الشاهد في اليقظة، وإلا؛ كان عاملاً بغير شريعة، إذ ليس بعد رسول الله ﷺ وحي.

ولا يقال: إنَّ الرُّؤيا من أجزاء النبوَّة فلا ينبغي أن تهمل، وأيضاً؛ فإن المخبرَ في المنام قد يكونُ النبيُّ ﷺ، وهو قد قال: « من رآني في النوم، فقد رآني حقاً، فإنَّ الشيطان لا يتمثَّل بي »[٢] وإذا كان كذلك، فإخباره له في النوم كإخباره في اليقظة، لأنَّا نقول: إنْ كانت الرُّؤيا من أجزاء النبوَّة فليست بالنسبة إلينا من كمال الوحي، بل جزءاً من أجزائه، والجزء لا يقوم مقام الكل في جميع الوجوه، بل إنما يقوم مقامه من بعض الوجوه، وقد صُرفت إلى جهة البشارة والنِّذارة، وفيها كاف.

وعلى الجملة: فلا يستدلُّ بالأحلام في الأحكام إلا ضعيف المُنّة. نعم؛ يأنس العلماء بالمرائي تأنيساً وبشارةً ونذارةً خاصّةً، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حُكماً، ولا يبنُون عليها أصلاً، وهو الاعتدالُ في أخذِها، حسبما فُهِمَ من الشَّرْع فيها، والله أعلم » اهـ.

والخلاصةُ التي ننتهي إليها في هذه المقدِّمة: أنَّ المنامات والأحلام، مقصورةٌ على التبشير، والتحذير، والاستئناس، والانتباه، والإشارة، ونحوها من الدلالات المستفادة منها، ولا يحلُّ أبداً أن تُجعل مصدراً معتمداً في الأحكام العمليّة وغيرها.

وهذا هو الذي دلّت عليه نصوص الشرع، وآثار السلف؛ ومن ذلك ما أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة في « المصنّف » (٧/ ٢٣٣ ط الفكر) عن حارثة بن مُضَرِّب ـ رحمه الله ـ قال: « إنّ رجلاً رأى رؤيا أنه من صلّى الليلة في المسجد دخل الجنة، فسمع بذلك ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فخرج وهو يقول: اخرجوا؛ لا تغترّوا، فإنّما هي نفخة شيطان » اهـ.

فتأمّل بالله ما أعظم علم الصحابة، وما كانوا عليه من العلمِ والهدى، وأنّهم لا يكترثون للأحلام في مقابل نصوص الشرع، وما تفيده من الأحكام.

وأيضاً كان سهل بن سلامة ـ رحمه الله ـ يقول: « الأحلام والرُّؤى تسرُّ المؤمن ولا تغرّه »[1].

ولا يمتنع عقلاً أن يسمى إبليس باسم النبيّ ﷺ، ليقول للنائم: إنه النبيّ ﷺ، ويأمره بالطاعة ليوقعه في المعصية » أهـ.

وقال ابن مفلح ـ رحمه الله ـ في « الآداب الشرعية » (٣/ ٤٢٩ـ٤٣٠): « وقد تكلم العلماء فيما إذا رأى النبيّ ﷺ رجلٌ فأمره في منامه، أو نهاه، وتلخيصه أنه لا يغير ما تقرر في اليقظة إجماعاً » أهـ.

ثمّ نقله عن ابن حزم وابن تيمية رحم الله الجميع.

وقال القرافيُّ في « الفروق » (٤/ ٤١٩ علميّة): « تقدّم عن العلاّمة العطار أنّه قال في « حاشيته على شرح المحلّي على جمع الجوامع » : « ولا يلزم من صحة الرّؤيا التعويل عليها في حكمٍ شرعيٍّ لاحتمال الخطأ في التحمل، وعدم ضبط الرّائي على أن العز ابن عبد السلام لمّا رأى رجل النبيّ ﷺ في المنام يقول له: إنّ في المحل الفلاني ذكاناً اذهب فخذه، ولا خمس عليك، فذهب ووجده، واستفتى العلماء، قال لذلك الرّائي: أخرج الخمس، فإنّه يثبت بالتواتر وقصارى رؤيتك الآحاد »[1].

وقال النووي ـ رحمه الله ـ في «تهذيب الأسماء» (١/ ٦٥ ط دار الفكر): «ومن خصائصه ﷺ أنّ من رآه في المنام فقد رآه حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بصورته، ولكن لا يعمل بما يسمعه الرّائي منه في المنام، فيما يتعلق بالأحكام، إن خالف ما استقرّ في الشرع؛ لعدم ضبط الرّائي، لا للشك في الرؤية؛ لأنّ الخبر لا يقبل إلا من ضابطٍ مكلف، والنائم بخلافه».

ومن جميل الكلام في هذه المسألة قول ابن الحاجّ ـ رحمه الله ـ في «المدخل» (٤/ ٢٨٧ـ٢٨٩): وليحذر ـ أي طالب العلم ـ مما يقع لبعض الناس في هذا الزمان، وهو أن يرى النبيّ ﷺ في منامه، فيأمره بشيء أو ينهاه عن شيء، فينتبه من نومه، فيقدم على فعله أو تركه بمجرد المنام دون أن يعرضه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلى قواعد السلف ـ رضي الله عنهم ـ قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩] ومعنى قوله: ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: إلى كتاب الله تعالى، ومعنى قوله: ﴿ وَٱلرَّسُولِ ﴾ أي: إلى الرسول في حياته، وإلى سنته بعد وفاته، على ما قاله العلماء[1] رحمة الله عليهم، وإن كانت رؤيا النبيّ ﷺ حقاً لا شك فيها، لقوله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني، فإنّ الشيطان لا يتمثّل في صورتي»[2] على اختلاف الروايات، لكن لم يكلف الله تعالى عباده بشيء مما يقع لهم في منامهم.

قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث»[3] وعدّ فيهم: «النائم حتى يستيقظ» لأنه اذا كان نائماً فليس من أهل التكليف، فلا يعمل بشيء يراه في نومه، هذا وجه؛ ووجهٌ ثان: وهو أنّ العلم والرواية لا يؤخذان إلاّ من متيقظٍ حاضر العقل، والنائم ليس كذلك. ووجهٌ ثالث: وهو أن العمل بالمنام مخالف لقول صاحب الشريعة ﷺ،

وبهذا التفصيل من كلام أهل العلم يظهر مدى صلاحية الرُّؤيا للاحتجاج، أو الردِّ، بناءً على ما تقتضيه نصوص الشرع الكريم.

فهي إن أرشدت إلى حكمٍ شرعيٍّ صحيحٍ، قد دلَّ عليه النَّص، فلا مانع من الاستئناس بها دون العمل بها على أنَّها من المنام، إذ العمل كما مرَّ لا يكون إلاّ بالدليل.

ومثال ذلك: قول سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «رأيتُ النبيَّ ﷺ في النَّوم فسألته عن البصل والثوم، فقال: الملائكةُ تتأذى بهما»[٢].

ومثله أيضاً: ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١/ ٢٤١)، والبخاريُّ (١٥٦٧)، ومسلم (٨/ ٢٧٧ نووي) عن أبي جمرة الضُّبعي قال: «تمتّعتُ فنهاني ناسٌ عن ذلك، فأتيت ابن عباس، فسألته عن ذلك فأمرني بها، قال: ثم انطلقت إلى البيت، فنمتُ فأتاني آتٍ في منامي، فقال: عمرةٌ متقبلة وحجٌّ مبرورٌ، قال: فأتيتُ ابن عباس فأخبرته بذلك الذي رأيت، فقال: الله أكبر، الله أكبر، سنَّةُ أبي القاسم ﷺ».

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٤/ ٢١٩): « ويؤخذ منه فرح العالم بموافقة الحق، والاستئناس بالرؤيا لموافقة الدليل، وعرض الرؤيا على العالم.. » اهـ.

ومثله أيضاً: ما أخرجه ابن أبي الدنيا ـ رحمه الله ـ في « المنامات » (ص: ٧٤) عن عبد الله بن سنان قال: « رأيت صاحباً لي في المنام، فسألته: أي شيء رأيت أفضل؟ فقال: عليك بسجدات المسجد، يعني الركوع في المسجد» .

وأيضاً: أخرج ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦/ ٣٨٠ ط دار الفكر) عن خُشْنَام بن أبي معروف قال: « كنت في حداثة سني امتنع عن التزويج تزهُّداً، ووالدي تلحُّ عليّ في ذلك، فقلت: كل امرأة أتزوجها فهي طالقٌ ثلاثاً، ثم احتجتُ إلى التزويج بعد ذلك، وفي قلبي منه شبهة، فرأيت النبيّ ﷺ في المنام، فقصصتُ عليه القصة فقال لي: تزوجْ، فإنه لا طلاق قبل النكاح» .

وهذا وغيره صريحٌ كما ترى بأنّ الاستئناس بالرؤى يكونُ بعد عرضها على الكتاب والسنّة، وقواعد الشرع الحنيف، بخلاف ما إذا تضمّنت حكماً دلَّ النصُّ على بطلانه، أو خطئه.